

الفصل الثالث

تيسير النحو ودراسته البلاغة

يشمل :

- ١ — النحو العربي بين النظر والتطبيق
- ٢ — البلاغة العربية بين منهجى اللغة والأدب

النحو العربي بين النظر والتطبيق

لبس هناك علم من العلوم العربية قد نال من العناية الفائقة والمجهود العقلي العميق ما ناله النحو العربي قديما وحديثا ، فمنذ القرن الأول الهجري الذي بدأت فيه هذه الدراسة إلى أن ألف أول أثر علمي باق بين أيدينا إلى اليوم وهو «كتاب سيديويه» والمجهودات العلمية تتوالى في هذا العلم حتى العصر الذي نعيش فيه ، فتضخمت مكتبة النحو العربي وما يحيط به من دراسات تضخما تتجاوز الحد المعقول ، وخرجت هذه الدراسة عن الغرض الذي من أجله يدرس النحو ويتعلم ، وهو خدمة اللغة في مستوياتها المختلفة قولاً وكتابة وقراءة .

هذه ثروة من تراثنا لا شك في ذلك ، ومجهود يستحق التقدير لا شك في ذلك أيضا .

لكن هذه العناية التي زادت عن حدها قد انقلبت إلى ضدها - كما يقال - فتعقدت مسائل النحو ، وضلت الحقائق الأصلية فيه بين الخلط الهائل الذي اميلأت به كتبه نتيجة التأثير بأفكار فلسفية ومنطقية دخيلة ، تسربت إليه في وقت مبكر ، ثم نمت دراستها فيه واستفحلت ، وكانت بطبيعتها صالحة للتشقيق والتفريع واصطراع الآراء حولها ، ووجد الباحثون من النحاة أنفسهم أمام هذه الأفكار الفلسفية الصالحة - كما قلت - للاخذ والرد والمناقشة والجدل ، فحاضوا فيها برفق أولا ... ثم استخدمت البراعة الذهنية الفائقة بعد ذلك فيما يمكن أن

تسميه « فلسفة النحو » ، لا في النحو نفسه ، وجعلت أبحاث النحو ودراساته تبعد شيئاً فشيئاً عن الغرض الذى تخدمه ، أو بعبارة أخرى : حدث الفراق بين النحو واللغة ، فدارت الدراسات النحوية - وبخاصة لدى المتأخرين - حول نفسها تستقى مادتها من الذهن لا من اللغة ، ومن الفلسفة العقلية لا من الواقع ، ومن الشراهد المتجمدة لا من بحوث ميدانية قوامها الاستقراء والمتابعة ، ومن المصادر التى تعتمد على القياس والاقتراضات لإخضاع الأمثلة طوعاً أو كرهاً لا من ملاحظة الناطقين باللغة واستمهاهم لها ومتابعة ذلك بالدراسات المتطورة .

وهكذا جاءت تركتنا النحوية محملة بعبء ثقل من أفكار غريبة عن الدراسة اللغوية الصافية ، ومتنفخة بدقائق الفروع والمجالات التى هى أثر من آثار أعمال الذهن وإجهاده .

وكان لذلك رد فعل عنيف لدى الناطقين والمتعلمين على السواء ، ظهرت آثاره قديماً فى مظهرين :

أولاً : تلك الخصومات والمشاحنات التى كانت تقوم كثيراً بين الناطقين الفصحاء وعلماء النحو وسدنته ، وهى فى نفسه الوقت مظهر لإحساس عام من الناطقين بشدة وطأة القواعد عليهم وضيقهم بما يشهرونه النحاة فى وجوههم من أقيسة صارمة حادة - وتروى لنا كتب اللغة والأدب مواقف لا تكاد تحصى عن ذلك النزاع والصراع والضيق ، وهى وإن كانت مواقف فردية استحققت الرواية والإثبات فإنها فى الحقيقة تشير إلى طبيعة العلاقة المتوترة التى كانت بين القاعدة والنص ، وبين المقلن صاحب القواعد وبين الناطق الذى يريد أن يستعمل اللغة بانطلاق وحرية بعد أن اكتسبها من الاستخدام والعرف .

ومن الأمثلة القليلة التى نورد هنا ما يلى :

• ما يرويه ابن سلام فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » عن النزاع المبكر

الذى حدث بين ابن أبي اسحاق والفرزدق ، حيث كان الاول يتابعه بالنخطة والتصويب ، ويورد ابن سلام :

أن الفرزدق حين قال :

مستقبلين شمال الشمال تضربنا بحاصب كنديف القطن منشور
على عمائنا تلقى وأرحلنا على زواحف تزجى مخارير

فقد قال له ابن أبي اسحاق : أسأت ، إنما هي (رير) بالضم ، وكذلك قياس النجو في هذا الموضع ، وقد ضاق به الفرزدق ، فهجاه هجاء مرا .

• ويروى صاحب الأغاني خصومة مماثلة بين سيبويه وبشار حين عابه الاول في بعض ما يقول ، فبلغ ذلك بشارا فقال : ويلى على ابن القصارين ١١ متى كانت الفصاحة في بيوت القصارين ١٢ دعوني وإياه ، فلما بلغ ذلك سيبويه بكى وجزع فقليل له ما ييكيك ١٣ فقال : ما لي لأبكي وقد وقعت في لسان بشار الاعمى وانتهى الامر بأن اعتذر أصحاب العالم النحوى العظيم عنه ، واستوهبوا من بشار عرضه

• ويروى أبو حيان التوحيدى موقفاً طريفاً من ذلك فيقول : وقف أعرابي على مجلس الاخفش فسمع كلام أهله في النجو وما يدخل معه ، فحار وعجب وأطرق ووسوس ، فقال له الاخفش : ما تسمع يا أخا العرب ١٤ قال : أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا

• وما حدث بين المتنبي وابن خالويه في مجلس سيف الدولة أشهر من يذكر فقد انتهى إلى مشاجرة مؤسفة سالت فيها دماء الشاعر المقهور .

* * *

هذه الروايات - وأمثالها كثير جداً - علائم تستوقف النظر ، وتلفت الفكر

إلى طبيعة العلاقة التي كانت بين متجى اللغة ودارسى النحو ، وربما كان قوله
الأعرابي للاخفش « أراكم تتكلمون بكلامنا فى كلامنا بما ليس من كلامنا »
— على بساطته وسذاجته وعفويته — عميق المغزى والدلالة على التصدع الذى حدث
بين الكلام فى النحو وكلام العرب من جهة ، وعلى الروح التى سيطرت على دراسة
النحو من جهة أخرى ، روح الفلسفة والمنطق والمجادلات الذهنية الحادة التى
لا تفيد شيئاً ذا قيمة .

ثانياً : أحس النحاة قديماً بالعبء الفادح الذى حملوا أنفسهم عليه وأرادوا
أن يحملوا الناس عليه أيضاً ، إذ لم تستطع عقول المتعلمين الغضة أن تستوعب
النحو كما شاء له النحاة أن يكون فروضاً ومجادلات وقضايا منطقية وفلسفة ذهنية
عميقة ، فاصطدموا بالنفور والإعراض عن بضاعتهم المختاطلة المضطربة ، وتنبهوا
إلى ضرورة التيسير على المتعلمين من الناس العاديين والصغار الناشئين — تماماً كما هو
الامر فى هذه الأيام — وإلى ضرورة مخاطبة الناس على قدر عقولهم بعد أن أوغلو
فى التعقيد والإغراب .

وكان من نتيجة ذلك أن ألفت قديماً مختصرات كثيرة فى النحو ، بدأت
بالكسائى الذى ألف كتاباً للببتدين سماه « المختصر الصغير » وهو الكتاب الذى
نقل إلى الاندلس فى نهاية القرن الثانى واكتفى الأندلسيون به — بعد أن نقلوه —
ما يقرب من قرنين الزمان ، وتوالت بعد ذلك المختصرات التى تعالمنها بها مصادر
الكتب والفنون ، مثل « مختصر النحو » للجرمى (٢٢٥ ت) ومختصر ثان
لابى موسى سليمان بن محمد (ت ٢٠٥) وثالث الزجاج (ت ٣١٠) ورابع
للزبىدى محمد بن عباس (ت ٣١٣) وخامس لأحمد بن الحسن (ت ٣١٧) ثم
« التيسير فى اللغة والنحو » لابن مقسم (ت ٣٥٣) كما ألف أبو على الفارسى
فى القرن الرابع « البصريات » و « الشيرازيات » لنفس الغرض ، كما اختصر
أبو حيان الاندلسى النحوى (ت ٧٤٥) كتاب « المقرب » لابن عصفور الاشبلى .

وعلى الرغم من أن معظم هذه الكتب لم يصلنا فإنه من المؤكد أن هذه المختصرات والميسرات وغيرها إنما كانت استجابة - ربما اضطرارية - لما دعت إليه روح الرغبة الحقيقية للمتعلمين والناطقين للغة أن يجهدوا لديهم ما يمكنهم أن يفهموه ويستخدموه من مسائل النحو لخدمة اللغة بعيداً عن التعقيد والاضطراب .

(٢)

تلك قضية النحو في إطارها الفكري قديماً ، تركة مثقلة ، ورد فعل عنيف . قوامه الرفض والنفور والسخرية أحياناً عند الناطقين باللغة والمتعلمين للنحو وهي في هذا الإطار نفسه واجهتها وما زالت تواجهها في الوقت الحاضر .

ولو قننا بعمل بحث ميداني اجتماعي عن نظرة المتكلمين بالعربية إلى النحو ودراسته ، بأن لاحظنا ما يحدث عملياً بين الطبقات الاجتماعية المختلفة سواء بين السواد الأعظم من الشعب من فلاحين وعمال أو الطبقات التي هيئت لها فرص الثقافة والتعليم في العلوم التجريبية أو الإنسانية ، فإننا من خلال هذا الواقع وملاحظته سنجد ما يلي :

أولاً : الغالبية الكبرى التي نطلق عليها طبقة « العوام » ، تحس إحساساً غامضاً مبهماً أن استخدام الفصحى في مخاطبتهم أمر غير مألوف لهم ، بل هو سخرية منهم ، ولذلك يقابلونه في مواقف المخاطبات العادية هذه بالتحدي والعداء وهم كذلك يربطون بين هذا الإغراب عليهم بالفصحى وبين النحو — لا أدري لماذا ؟؟ — فإذا جانب إنسان التوفيق في مراعاة المستوى الاجتماعي في مخاطبة العامة ، فتحدث بكلمة عريية فصحي في أحد المواقف العادية معهم ، كان عرضة للسخرية المرة واصطدم بالرد الشائع الذي نسمعه منهم كثيراً وهو (يتكلم بالنجوى - بفتح الحاء) وربما صاحبت هذه العبارة حركات باليد واللسان .

وربما ترتب عليها الإخفاق في قضاء حاجته التي كان من أجلها الكلام .
والإحساس بغرابة الفصحى في المخاطبات العادية أمر معترف به لغويا . ذلك
أن اللغة ظاهرة اجتماعية تختلف باختلاف المستوى الاجتماعي الذي ترد فيه
فإذا حدث الإغراب بالفصحى في الموقف العادي على الرجل العامي ، فليس من
الغرابة أن يكون رد الفعل لديه هو التحدى والسخرية ، لكن الغريب حقا هو
هذا الارتباط في إحساس العامة بين النحو وبين موقف السخرية والرفض !!

وعلى كل حال فليس هذا مما يدخل في الاعتبار فيما نحن بصدد رصده من رد
الفعل تجاه النحو ، إذ النحو من خصائص الفصحى التي تستعمل في مستويات
فكرية أرقى من الحياة العادية .

ثانيا : المثقفون في العلوم التجريبية من طب وهندسة وكيمياء وغيرها
وعولاء قد مروا حقا في دراستهم العامة باللغة العربية ونحوها وصرفها ، ولكن
رصيدهم منها رصيد ضعيف للغاية ، أو بعبارة أدق : رصيدهم من استعمالها
أضعف من الوصول إلى مستوى التمكن والإفهام ، فيندر أن تجد بينهم من يجيد
استعمال العربية في التعبير عن أفكاره ، ويندر أكثر من ذلك أن تجد من يستعملها
ينطقها بصورة صحيحة — أدنى درجات الصحة — على حسب مقتضيات النحو
وقواعد العربية ، وإحساسهم بهذا الضعف يغطيه ويسوغه عندهم «اللامبالاة» أحيانا
والسخرية أحيانا أخرى من النحو ودراسته ودارسيه ، بل ومن القصص عموما .
وليس من النادر أن تسمع في كلامهم الخلط المتعمد بين لغة عامية ركيكة وألفاظ
وتعابير أجنبية غريبة للتعبير عن أفكارهم ، سواء في مواقف الحياة العادية أم
في الاستعمال العلمي الجاد ، وقد عاوتهم طبيعة دراستهم التي تعتمد في الغالب
على اللغات الأجنبية في الدراسة والتأليف على اتخاذ هذا الموقف الذي قوامه
«اللامبالاة» والسخرية والضعف .

ثالثا : المثقفون ثقافة إنسانية تخصصوا فيها ، كالقانون أو الاقتصاد أو التاريخ أو اللغة أو الأدب ، وفي هذا المستوى نجد منهم كثيرين منخلصين حقا في رغبتهم العميقة لإجادة اللغة العربية ونحوها وصرفها ؛ لاستخدامها في التأليف والقراءة والحديث الجاد بمستوياته المختلفة ، ولكن من الحق أيضا أنهم لا يستطيعون ذلك ، ومن الحق كذلك أن المسؤولية عن إخفاق هذه الرغبة تعود في جزء كبير منها إلى أسباب اجتماعية وسياسية مرت بها حياتنا العربية في العصر الحديث - لا مجال هنا لذكرها - ولكن، السبب الأكبر للإخفاق في استخدام اللغة على مقتضيات النحو وأساليب الفصحى - وبخاصة بعد أن زالت الآن الأسباب الاجتماعية والسياسية المعوقة - يعود إلى ما نحن بصدد من فشل التقريب بين تركتنا النحوية كما ورثناها وبين تلقى الدارسين لها بصورة سهلة ميسرة .

وليس من النادر أن تجد في هذا المستوى مظاهر من اللحن والخطأ تدعو إلى الغرابة والدهشة ، ليس من النادر مثلا أن تجد ممن يتعاطون الإنتاج الأدبي - بكثرة هذه الأيام - من لا يستطيع أن يقيم عبارة واحدة كاملة صحيحة مضبوطة في حديثه ، وليس من النادر كذلك أن تجد بين من يدرسون اللغة أنفسهم من يخطئون أخطاء بدائية ناشرا، وتصطدم آذاننا دائما بأخطاء المذيعين والصحفيين الذين يقفون من الناس موقفا عاما في المحادثة والكتابة ، بحيث يشك الإنسان في أنهم قد أفادوا - حتى مجرد المبادئ العامة - في دراستهم اللغوية التي هيأتهم لهذا الموقف الخطير .

ومن هذه النظرة الشاملة - المعتمدة على الاستقرار والواقع - للمستويات المتعددة للإنسان العربي المعاصر - يمكن أن نقول بصورة عامة : إن الشعور العام بين الناطقين بالعربية - من مستوى العوام حتى مستوى النخوص في اللغة والأدب - تجاه قضية النحو وقواعد العربية في الاستعمال والفهم هو ما سبق أن

تقررناه في بداية هذه الفقرة ، وهو الإحساس بالصعوبة الذي يؤدي بالبعض إلى النفور والرفض والسخرية ، لامن النحو وحده ، بل من اللغة الفصحى واستخدامها كاية حتى لدى المثقفين الذين يقدم لهم ضعفهم بل عجزهم عن إجادة الفصحى ونحوها مسوغا لتطرفهم ورفضهم .

(٣)

وعلى ذلك قامت حركات علمية متعددة في العصر الحاضر تتناول هذه المشكلة الموجودة فعلا معتمدة على ما في هذا الواقع نفسه لتقدم حلولاً لمشكلة النحو ودراسة العربية ، واختلفت هذه الحلول اختلافاً حاداً ، إذ كان بعضهم متطرفاً رفض المشكلة ، ودعا إلى اطراح النحو وقواعد العربية ، وكان البعض الآخر أقل منهم تطرفاً وأذكى طريقة ، إذ دعا إلى مادعا إليه الفريق الأول لكنه حاول أن يتلمس لذلك سنداً علمياً يدعم به رأيه ، وفريق ثالث معظمه من المدرسين المعتدلين الذين لم يناقشوا وجود المشكلة أساساً بل اتجهوا مباشرة إلى تقديم مجهوداتهم الشخصية وما وسعته طاقتهم لتيسير ما هو عسير من مشاكل النحو العربي ، وتقديمه للدارسين في صورة سهلة ، فوفقوا في كثير من الأحيان وإن كان قد جانبهم التوفيق أحياناً ، ولا علينا من فريق آخر يحافظ لا يخطر بباله حتى مجرد التفكير في التغيير ، إذ هو سلفى منعزل عن الحياة وحيويتها !!

وسأتناول هذه الحركات الثلاث — بتركيز شديد تسمح به طبيعة هذا البحث — بنفس المستوى الذي دعت إليه واعتمدت عليه مغالطة أو هلما أو تربية — مع مناقشتها على أساس موضوعي قدر الطاقة — لنستقدم بعد ذلك بما نعتقد أنه الحق في هذه القضية المزمنة الخطيرة .

لقد ركز أصحاب الاتجاه الأول على اقتلاع جذور المشكلة كلية وهدم أساسها ، واتخذوا لأنفسهم «منهج الرفض المطلق» فلم يروا إلغاء الإعراب والنحو من اللغة العربية فقط ، بل رأوا إلغاء اللغة الفصحى عامة ، وقد تشكلت دعواتهم بأشكال متعددة ، مرة بالدعوة إلى العامية وإحلالها محل الفصحى ، ومرة أخرى بالدعوة إلى إبدال الخط العربي باللاتينى ليريحنا ذلك من مشاكل الضبط وقواعد الإعراب - كما اتخذوا لدعواتهم مسوغات ووسائل للتأثير بها في نفوس الناس وإذاعتها بينهم ، مثل أن اللغة العربية غير علمية ، وهى السبب في تعطيل قوة الاختراع عند العرب ، وأنها صعبة التعلم وبخاصة في نحوها وصرفها اللذين قد يقضى الإنسان عمره فيهما ثم لا يجيدهما بعد ذلك ، وأن من الاضطراب والتعقيد أن يكون للإنسان لغتان إحداهما للكتابة والأخرى للكلام - إلى غير ذلك من أسباب ومبررات .

ومن الحق أن نقرر أولاً أن معتمد هذه الدعوات المتطرفة تركز بصورة أساسية على النحو العربى ومشاكله واضطرابه ، ذاك الذى يتعب الناس فى تعلمه وفيما يترتب عليه من ضبط أو لحن !!

ومن الحق الثابت تاريخياً كذلك أن مخترعى هذا الاتجاه ومؤلفيه فى الأصل - وإن لم تحفظ لهم حقوق الطبع بعد ذلك - لم يكونوا عرباً ولا لغتهم الأصلية هى العربية ، بل كانوا من المستشرقين والأجانب ، وتابعهم فى ذلك - ربما بنفس الألفاظ والطريقة - بعض المصريين والعرب الذين لا شأن لنا هنا بدوافعهم وأهدافهم ، لأننا نقرر الحقيقة التاريخية والعلمية فقط .

فى سنة ١٨٩٢ ألقى مهندس الرى الإنجليزى «ولكوكس» محاضرة فى نادى الأزبكية بالقاهرة نشرت بعد ذلك فى إحدى المجلات القاهرية تحت عنوان «لماذا لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين» ؟ وأرجع ذلك لاستعمال اللسان العربى

المعرب ، وجاء في كلامه « إن الحجاب بين المصريين وبين ترقى معلوماتهم إنما هو تسطير أفكارهم بهذا اللسان المهجور الخفى الصعب ،

وفي سنة ١٩٠١ دعا «مستر ويلمور» - أحد قضاة الاستئناف بالقاهرة - إلى ترك الفصحى وإبدالها بالعامية ، واقترح أن تكون هذه العامية هى لهجة القاهرة على أن تكون كتابتها بالحروف اللاتينية ، ويعمم تعليمها فى المدارس ، وكان مما قاله «إن لغة الكتبة لا يتقن النطق بها إلا المتعلمون جيذا ، ولا معنى لأن توجد لغة للكتابة وأخرى للكلام ،

وفي سنة ١٩٠٠ ألف المبشر «زويمر» كتابه : «جزيرة العرب مهد الإسلام» وقال عن اللغة العربية : «إنها لغة شائعة ، ولكنها شاقة جدا على الراغب فى تعلمها سواء فى أصواتها أو صيغ كلماتها أو نحوها» .

وفي سنة ١٩٢٩ ألقى المستشرق ماسينيون فى باريس محاضرة عامة حضرها عدد كبير من أبناء المغرب العربى ، هاجم فيها اللغة العربية ، ودعا إلى كتابتها بالحروف اللاتينية ، ورأى ذلك حلا لمشكلة الحروف وحركاتها ، وأهمها الشكل الإعرابى بالطبع .

تلك نظرة عامة وسريعة إلى أصحاب «اتجاه الرفض المطلق» من بعض المستشرقين والأجانب تجاه النحو خاصة والعربية عامة .

وقد تابعهم فى هذا الاتجاه وأفكاره بعض المصريين والعرب !!

ومن هؤلاء «لطفى السيد» الذى دعا إلى تمصير اللغة العربية تحت ستار اللقاء بين الفصحى ولغة الناس ، وقال عن النحو والشكل الإعرابى «ليس الشكل من أصول اللغة بل هو أمر عرض لما بعد الإسلام خشية عليها من التحريف فى أواخر الكلمات ومبانيها» .

وفي هذه الايام أهمل الشكل بالمرة .. وإننا لسنا في حاجة إلى إبطال الشكل وتغييره ، فقد ألغى من تلقاء نفسه .

وأسهم « قاسم أمين » في هذه القضية كذلك ، ورأى أنه لا قيمة للنحو ولا للإعراب ، ويجب أن يطرح ذلك طرحا من لغتنا ، فأواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل ، وبهذه الطريقة - وهى طريقة جميع اللغات الإفريقية واللغة التركية أيضا - يمكن حذف قواعد الرفع والنصب والجزم والحال والاستقبال وغير ذلك .

ولست فى حاجة بعد ذلك إلى متابعة كل هؤلاء التابعين للأجانب والمستشرقين بالاستقصاء ، فالاستاذ «سلامه موسى» أشهر من أن نذبه على آرائه ، وأمامى كتاب «البلاغة العصرية واللغة العربية» وهو يردد الأفكار السابقة نفسها عن لغة الكتابة ولغة الكلام ، و «انتشار اللغة لسهولة نحوها والعكس بالعكس» و «الخط اللاتينى» و «الوقف بالسكون» و «إلغاء النحو والإعراب» ويقول «الإعراب فى لغتنا هو لعبة بهلوانية للذهن واللسان» ، ولن نحسنها إلا بعد أن نربى عضلات قوية تستجيب بسرعة ، وكثيراً ما رأينا القارىء الذى يلتفت إلى الإعراب لا يفهم ما يقرأ وهو يعرب ،

وسار فى نفس الاتجاه «الخورى مارون غصن» فى بيروت ، وكثير من أساتذة الجامعة الأمريكية فيها الآن ، حيث تطالعنا كتبهم بالاسماء الآتية وقواعد النحو على أساس جديد ، و «نحو عربية ميسرة» و «دراسات فى النحو» و «اللهجات وأسلوب دراستها» إلى غير ذلك .

نفس الأفكار ، نفس الاتجاه ، نفس الدعاوى ، كأنما قد تواصلوا عليها وإن اختلف أسلوب العرض وتغيرت الوجوه والاسماء ، فأنيس فريجه فى كتابه «نحو عربية ميسرة» يقول نصاً «الإعراب لا يتلاءم مع الحضارة» ، نحن

(فى اللغة ودراستها - ١٤)

نرى في الإعراب - الإعراب في أية لغة - بنية من البداوة ، و د لو أن الإعراب ضرورة للفهم والإفهام ، لبقى ولحافظت عليه جميع اللغات التي كانت معروفة ولكن لكونه غير ضروري سقط . وقد جارت العربية المحكية سائر اللغات في مجراها الطبيعي ، فهي من هذه الناحية حية نامية متطورة .. د إن الإعراب عقبة في سبيل التفكير ، ذلك مما لا نشك فيه ، وسقوطه من اللهجة المحكية - التي يقترح شيوعها - خطوة هامة نحو تيسير الكلام حتى يصبح الكلام طريقا مهدا للفكر ، ومعظم الدعاوى التي ترددت فيما سبق نجدتها في هذا الكتاب ..

ولعل في هذا العرض السابق لم أخرج عن قضية موضوعي في النحو وتيسيره حيث اتخذت صعوبته وصعوبة تعلمه منطلقا لهذه الأفكار المتطرفة بمظاهرها المختلفة .

والملاحظة العامة التي أعلق بها على هذا الانجاء هي: أن دعاوهم في معظمها لا تعتمد على أسس علمية ذات قيمة ، بل هي في معظمها أفكار سطحية انفعالية تملق الجماهير وتستفزها بكلام براق خادع ، لا وزن له في مجال الحقيقة والعلم مع صرف النظر عن النيات الأخرى التي تسكن وراء كل ذلك - مما لا مجال هنا لذكره - حتى إن رد الفعل أمام هذه الدعاوى لدى الجماهير العربية المتقفة كان أيضا د الرفض المطلق ، كما اعتمدت هي أيضا على د الرفض المطلق ،

* * *

أما الانجاء الثاني فإنه - كما سبق - يتفق مع هذا السابق تجاه قضية النحو لكنه حاول أن يستند إلى أسس علمية يبرر بها فكرته ، ليبدو في مظهر الاعتدال والتعقل ، وأبرز من يعتد بهم هنا هو د هو الدكتور إبراهيم أنيس ، وسأعرض فكرته باختصار شديد .

في كتابه د من أسرار اللغة ، تناول الموضوع تناولاً هادئاً طويل النفس

جميل العرض فتحدث عن نشأة الإعراب وتمكنه ثم تعقده وأن النحاة قد اتخذوه أو بالأصح اخترعوه ونسقوه ، وجعلوه حصنا لهم يؤكدون من خلفه لأنفسهم القوة المادية والمعنوية ، فقد صارت قواعده معقدة شديدة التعقيد ، وقد نفى الأعمار دون الإحاطة بها أو السيطرة عليها ، وصرنا الآن ننفر منها لما اشتملت عليه من تعسف وتكلف ، بغض إلى الكثيرين دراسة اللغة في العصر الحديث ،

هذه الظاهرة ونظامها وقوانينها مخترعة إذن ومزيفة ، وكل هذا التراث المتضخم منها قام على أساس غير موضوعي وغير علمي ، وليس من شأني فيما أنا بصده أن أخوض في تفصيلات رأيه ومناقشته — فلذلك موقف آخر — ولكن الخُص اتجاهه العام فقط في عبارات قصيرة :

الأصل في الكلمات أن تشكل أواخرها بالسكون ، وهكذا كان الأمر في القديم ، وتحريك أواخر الكلمات يكون لأسباب صوتية يدعو إليها وصل الكلام ، والذي يحدد الحركة قانونان صوتيان هما :

١ — إثارة بعض الحروف لحركة معينة كحروف الحلق مثلا التي تؤثر الفتح

٢ — الميل إلى تجانس الحركات في الكتلة الكلامية الواحدة

باختصار : إن الإعراب عمل آلى يدعو إليه النطق المنصل في الكلام دون أن يكون وراءه معنى أو نظام مما جهد النحاة في تتبعه والتأليف فيه حتى دخلوا مآتاهات ضل فيها السالكون .

هذا الافتراض العلمي على الرغم مما فيه من جرأة يقف قاصراً أمام أهم ما لدينا من نصوص لغوية هي : الشعر والقرآن ، وإذا استطاع أن يفسر بعض الظواهر الجزئية ، فإن الكثرة العامة من هذه النصوص تخالفه تماماً وتجافيه وهو بصفتيه هاتين - الافتراض والقصور عن تفسير النصوص العربية الصحيحة -

لا يحل لنا المشكلة الموجودة فعلا، وهكذا كان مصيره على الرغم مما أثاره ويثيره من مناقشات وجدل .

ما علينا !! فلنتناول الاتجاه التعليمي الثالث ، هذا الاتجاه المتواضع الذى لم يناقش أساس المشكلة ، بل اتجه إلى تقديم ما يراه من تيسير على المتعلمين ، وقد بدأ مع بداية هذا القرن ، وانتهى بقصة « المسند والمسنند إليه » وبأهلها من قصة !!

(٤)

بدأت فصول هذه القصة فى السنوات الأولى من هذا القرن ، إذ ألف دحفتى ناصف ، ومعه آخرون كتاباً لتعليم قواعد العربية تحت عنوانى « الدروس النحوية » للمدارس الابتدائية و « قواعد اللغة العربية » للمدارس الثانوية ، وقد اتبع فى ذلك طريقة الإجمال أولاً ، ثم التفصيل ، ثم التفصيل الأكثر ، على معنى أن الذى يعلم أولاً هو نفسه الذى يعلم ثانياً مع اتساع فيه ، وهكذا بالتدرج ، والمادة العلمية الموجودة فى هذه الكتب تتناول الفعل وأحكامه ، ثم الاسم ، ثم الجملة بنفس الروح النحوية القديمة ، بل إن الطريقة نفسها قديمة ، اتبعها ابن هشام النحوى المصرى فى القرن السابع ، وأشار إليها ابن خلدون بقوله : ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها ، استوفى فيه أحكام الإعراب جملة ومفصلة ، وتكلم على الحروف والمفردات والجل ، وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها وسماء « المغنى فى الإعراب » ،

لم يكن فى هذا التيسير تغيير فى المادة ولا فى الطريقة إذن ، وقد استمر معمولاً به حتى أواخر العقد الثالث من هذا القرن ، حين ألف « على الجارم » كتابه الشهير « النحو الواضح » ، للمدارس الابتدائية والثانوية ، وأهم ما يميز هذا الكتاب أمران :

(١) أنه غير في الطريقة ، إذ اتبع استقراء الأمثلة للخروج منها إلى الملاحظة العامة أو القاعدة

(ب) أنه لم يلتزم فيما يستقرأ من هذه الأمثلة هواهد النحو القديمة البعيدة عن روح العصر ، بل استخدم من الأمثلة النثرية والشعر ما انتقاء بروح الأديب للشاعر ؛ لجذب الانتباه ومخاطبة الوجدان ، ليسهل على الدارس الوصول إلى القاعدة .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد ألف منذ زمن بعيد ، وانتهى العمل به في المدارس بعد سنوات من تأليفه ، فإنه ما يزال - لهاتين الصفتين السابقتين - وسيلة ناجحة لتعليم النحو ، وتتوالى طبعاته حتى اليوم .

إلى هنا ، ولم يحدث تيسير في المادة العلمية ، فهي نفسها مادة النحو القديم بمصطلحاته وأفكاره ، ولكن منذ سنة ١٩٣٥ بدأ التيسير في المادة نفسها دون المصطلحات ، وبدأ الأمر هنا أولاً باعتماد أصحابه على الارتباط - ولو بأدنى الأسباب - في تيسيرهم بآراء النحاة الأقدمين ، على أن يكون في ذلك نوع من التخفيف على الدارس وفهمه ، ومن أمثلة ذلك :

• في الآية القرآنية (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) يرى جمهور النحاة أن الفعل (يتبين) منصوب (بأن) مضمرة بين (حتى) والفعل ، ومن رأى بعض النحاة أنه منصوب بعد حتى بلا إضمار ، وهذا ما أخذ به الميسرون .

• المستثنى التام المنفى في مثل قول القرآن (ما فعلوه إلا قليل منهم) فيه وجهان لدى النحاة النصب على الاستثناء والرفع على الإتيان ، وقد اختار الميسرون وجهاً واحداً منها — وهكذا في كثير من مسائل النحو .

فهذا تيسير في المادة في حدود الصلة بالآراء القديمة ، أو بعبارة أخرى : هو تيسير حذر اعتمد على اختيار الأسهل فيما هو موجود في الكتب النحوية ولكنه لم يغير شيئاً من المصطلحات التقليدية المتعارف عليها .

* * *

وهكذا ظل الأمر حتى سنة ١٩٥٨ - إن لم يخطئني التاريخ - وفي هذه الأثناء ألف الأستاذ إبراهيم مصطفى ، كتابه « إحياء النحو » ، الذي اتخذ أساساً للطريقة المشهورة « المسند والمُسند إليه » ، والتي لم تقتصر على التغيير في المادة فقط ، بل غيّرت أيضاً المصطلحات ، وطبقت فكرتها في كتاب آخر هو « تحرير النحو العربي » ، وعلى أساسها كانت الكتب التعليمية المدرسية .

وسأقدم فكرة موجزة عن هذه الطريقة التي ما يزال دويها في آذاننا ، لنخلص بعد ذلك إلى الرأي في هذا الموضوع .

لقد قامت هذه الطريقة على أسس اجتهدية أهمها :

• إن حركات الإعراب في الكلام العربي ليست أثراً لعامل من العوامل بل هي دوال على معان في تأليف الجمل وربط الكلام .

ويتلخص هذا في أمور ثلاثة هي :

الضمة علم على الإسناد ، ودليل على أن الكلمة المرفوعة يراد أن يتحدث عنها ويستند إليها

الكسرة علم على الإضافة وإشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها

أما الفتحة فليست علامة لإعراب ولا دلالة لها على شيء ، بل هي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب .

والى هنا قد يبدو الأمر سهلاً وهيناً ومقبولاً أيضاً ، ولكن صاحب الرأي

حين راد تطبيق فكرته على مسائل النحو العربي كلها اضطر إلى جهد عقلي كبير يحتاج لجهد مماثل في الفهم والتطبيق .

فقد أراد أن يجمع تحت اسم (المسند إليه) كل شيء أسند إليه مثل المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل واسم (إن) والمنادى وغيرها ، واضطر تبعا لذلك أن يتلمس لذلك وسائل تعسف فيها أحيانا - وبخاصة لما ليس شكله الضم في اللغة - وبدأت غريبة على الطريقة التقليدية المألوفة ، ومن أمثلة ذلك (اسم إن) والمنادى وغيرهما في كلام طويل ليس هنا مجال ذكره - وكذلك فعل في اصطلاحه (المسند) الذي جمع حرله الفعل والصفة والخبر ، واضطره اطراد قاعدته من افتراضه أن (المسند) يجب أن يكون بطريقة واحدة إلى تلمس وسائل اعتبرت أيضا غريبة ، وذلك كإهمال الضمير المستتر ، وجعل الضمائر في الفعل إذا تأخر عن الفاعل علامات فقط للنوع والعدد ، وليست أسماء كما درج على ذلك النحو التقليدي .

وفي اعتباره السكسة علامة للإضافة ، غير أيضا مصطلحات مألوفة ، كتسمية حروف الجر حروف الإضافة ، وقوله : الإضافة تكون للأفعال كما تكون للأسماء .

كذلك سمى المنصوبات كلها « مكملات » .

وليس من شك في أن الأستاذ « إبراهيم مصطفى » ، كان شريف القصد نبيل الهدف ، وأن عمله هذا يدل على حيوية عقله واجتهاده ، كما يدل أيضا على طول النظر في النحو سنين طويلة حتى أطلق عليه الأستاذ العقاد لقب « سيويه العصر » .

وبعد أن تهيأت له فكرته وفلسفته الخاصة قام بمجهود كبير لتعترف بذلك الهيئات المتخصصة ، وتطبيقه في التعليم ، وفعلا نال اعتراف المجتمع اللغوي بذلك في سنة ١٩٤٥ ، ثم أجهزته وزارة التربية والتعليم بعد ذلك سنة ١٩٥٧ وما بعدها

وتحقق له ما أراد ، فطبقت طريقته في المدارس الإعدادية والثانوية ، ولكن لم يقدر لها البقاء أكثر من ثلاث سنوات ، فصادفتها صعوبات وعقبات تربوية وقومية أكثر منها علمية .

ذلك أن هذه الطريقة في محاولاتها جمع مسائل النحو المتعددة في إطار فكرتين أو ثلاث قد اصطدمت بمستوى الطلاب القاصر الذي يعجز عن التجميع والتجريد والإحاطة بالمسائل المتعددة في إطار فكرة واحدة .

كما أن تغيير مصطلحات النحو المتعارف عليها من فاعل ونائب فاعل ومبتدأ وخبر وغيرها إلى مصطلحات أخرى كالمسند إليه والمسند والمكملات وحروف الإضافة اعتبر أمراً خطيراً هز الوجدان العربي بصورة رهيبة - وبخاصة أنها طبقت في عهد الوحدة بين مصر وسورية - ناهيك بسدنة التراث القديم الذين تنادوا من أرجاء الوطن العربي ، وتواصلوا في المؤتمر الذي انعقد بالقاهرة سنة ١٩٦١ على إسقاط جهد الرجل وطريقته ، فسقطت ١١ وعاد الأمر إلى ما كان عليه من قبل ذلك .

(٥)

والآن ما هو الحل ؟

إن قضيتي الفكرية التي التزمتهما في كل الفقرات السابقة لهذا الموضوع هي :
النصع القائم بين القواعد واللغة ، أو بعبارة أخرى : بين علم النحو واستخدامه عملياً في النطق والتعلم ، وقد تابعت مظاهر هذه القضية في تراثنا ، وفي المستويات الاجتماعية المتعددة للناطقين بالعربية ، ثم في موقف الدارسين منها على اختلاف مللهم ونحلهم .

ولكن المشكلة ما تزال قائمة ١١ فما هو الحل ؟

في رأي أن الحل في وقتنا الحاضر ذو شقين :

الأول : يتعلق بالظروف القاسية التي أساءت وما زالت تسيء إلى « نحو » اللغة العربية خاصة دون لغات العالم ، فإن هذه الظروف قد كونت طبقة عازلة سميكة ومدمرة تحول بين رغبة الفهم والفهم نفسه ، وأقامت حاجزاً معوقاً يمنع الالتقاء المتسامح بين طرفي القضية من الدارسين ومادة الدراسة .

الثاني : يتعلق بمادة الدراسة نفسها ، وذلك لتصفيتها عما خالطها من أفكار دخيلة عليها والاعتماد في ذلك على الروح العلمية التي يمكن أن نفيدها من علم اللغة الحديث للقيام بهذه التصفية على أساس منهجي محدد ، ثم الطريقة العلمية التي نقدمها بها إلى الدارسين في مستوياتهم المختلفة دون أن يصطدم ذلك بامتداد تراثنا الثقافي عبر الزمن ، ولا بامتداد وحدة فكرنا القومي المعاصر كله عبر المكان .

ومن الناحية الأولى ينبغي أن تطرد من حياتنا تماماً تلك الدعوات الانهزامية التي ترتفع بين الحين والحين لتشكك في لغتنا وترميها بالنحجر والجود ، وتصف نحوها بالصعوبة والتعقيد والتي يقوم بها أحياناً - مع الأسف - بعض من يستمع الناس لهم إذ وضعتهم الظروف منهم موضع الرواد والموجهين ، فهم - وإن لم يحققوا بدعواتهم تلك ما يهدفون إليه منها - يسيئون إلى قضية اللغة ودراسها أكبر الإساءة ، إذ يضعون أمام أذهان الناس ووجدانهم وجهاً آخر مظلماً للقضية اللغوية ، مع أن القضية ينبغي ألا يكون لها سوى وجه الحرص على هذه الأداة الاجتماعية الرائعة ، نعبها عن ثقافتنا وتفكيرنا وشعورنا ، تلك اللغات النشاز التي من هدفها التشويش لا الإصلاح والتعويق لا التقدم نغمت ينبغي لها أن تصمت ، فهي غير عملية من ناحية ، وهي من ناحية أخرى لا تقدم للأمة غير التشكيك والتشاؤم والبلبلة الفكرية ، فن الذي يتصور أن الأمة العربية

ستكتب باللاتينية أو تصطنع العامية ؟؟ إننا يمكن أن نتصور ذلك إذا صرح لنا
أن نتصور أن الإنسان يستطيع أن يغير جلده ومقوماته النفسية والفكرية !!

وهناك أمر ثان ينبغى أن يقرر وأن يشيع هو : أن لكل لغة من لغات
العالم نحوها الذى يعبر عنه بطريقة تأليف جملها وكلماتها والوسائل الشكلية التى
تعبّر بها تلك اللغات عن وظائفها النحوية من ترتيب الكلمات أو الإعراب حسب
العرف الذى اختارته اللغة وجاء نظامها عليه ، وأن « النحو » فى اللغات الأخرى
ليس من السهولة إلى الحد الذى يدرسه به الدارس دراسة مترفة تعتمد على التدليل
والتيسير ، بل إنه ليدرس باهتمام بالغ دون أن تقابله روح الاعتراض والتذمر
التي أصبحت عادة من عاداتنا الخلقية الرديئة ، والتي استتبعها - وما يزال -
الاستجابة الذليلة للتيسير .. ثم التيسير .

ولنأخذ الكتب اللغوية الإنجليزية مثالا لهذه الفكرة ، فالمطولات التى تدرس
اللغة وقواعدها فيها من الدقة والتفرع - بل ومظاهر الشذوذ - ما يجهد الدارس
المتخصص فى معرفته والإحاطة به ، ومع ذلك لم يسمح لروح التدليل أن تفرض
على علمائها ما يعانى به علماءنا من هذا الخلق الرديء ، والذى هو أصلا نتيجة التعمود
الخالق قبل أى شئ آخر . انظر فى الإنجليزية مثلا :

(١) Sapir, Language, An introduction to Study of Speech.

Bloomfield, Language

(٢)

وأمر آخر أشرت إليه فى هذا الموضوع سابقا ، وهو الروح الاجتماعية
التي مازالت تنظر شذرا إلى النحو وقواعده ودارسيه ، وهذه الروح وليدة ظروف
عصيبة مرت بها لغتنا القومية فى القديم والحديث وأثر نفسى باق انعكاسا لظروف
التخلف والانحدار التى منبت بها الأمة العربية نتيجة الاستعمار والجهل ، وأعتقد

أن هذه الروح في طريقها إلى الزوال قريباً بعد التغيير العام الذي وجه أوضاعنا السياسية والاجتماعية والقومية في طريق سليم ، إذ بدأت الأمة العربية تبحث عن ذاتها ومقوماتها الأصيلة . بعد أن افترقت ذلك من زمن طويل سمح لبعض الافكار البغيضة أن تعيش وتمتلك 11

وهناك أمر آخر ينبغي أخذه مأخذ الجد وهو ، القدوة الحسنة في النطق ، تلك التي يتسع مداها فيمن يقفون من الشعب موقف المخاطبة العامة ، وأعني بذلك أجهزة الاعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون حيث نسمع ونقرأ أخطاء سافرة في مبادئ النحو والصرف ، وإن الإنسان ليدش حين يقارن بين بعض المذيعين الأجانب الذين يتحدثون العربية ، فيسمع صياغة متقنة سليمة : وبين المذيعين في الإذاعات العربية حيث تكثر أخطاؤهم بطريقة منفرة مزعجة - ومثل ذلك تماماً ما يحدث في قاعات الدرس والمحاضرات مما ينبغي أن يتحقق له مستوى معقول في مراعاة المبادئ العامة للنطق الصحيح ، وما زال يرن في أذني وأنا طالب صغير ما كان يكتبه وينطقه لنا مدرس الرياضة (ينطبق المثلثين على بعضهما تمام الانطباق) ويضغط على كلمة (المثلثين) ضغطاً شديداً كأنما يؤكد به الخطأ فيها .

وما دمنا نأخذ الموضوع مأخذ الجد فأقترح أن يكون في كل تلك الأجهزة مراقبون لغويون من أساتذة الجامعات والمتخصصين ، تكون مهمتهم التوجيه اللغوي والتثقيف والتنبيه على نماذج الأخطاء .

بهذه الأمور الأربعة : إسكات المشوشين الذين يسيئون للغة ودراساتها - ورفض روح التدليل في تعلم قواعدها - وتبديل النظرة الاجتماعية التي ستحدث تلقائياً بفعل ظروفنا الجديدة - ثم القدوة الحسنة ، يتبهاً لنا بحق مناخ العمل المجدى لكل تسهيل وتيسير .

أما الشق الثانى من الحل الذى مجاله المادة النحوية نفسها ، فيعتمد على الخطوط العامة الآتية :

أولاً : الاعتماد على المنهج اللغوى الحديث فى التفكير فى اللغة وفى تصفية النحر مما عابه من خلط وأفكار دخيلة فلسفية ومنطقية .

وليس هذا موضعى لأخوض فى تفصيلات هذا المنهج ، ولكنى فقط أقدم بعض أسسه التى يمكن أن نفيد منها فى ذلك .

• يعتمد هذا المنهج على دراسة اللغة دراسة تنبع من اللغة وتعود للغة أيضاً دون السماح لأية أفكار أخرى غير لغوية أن تتدخل فى هذه الدراسة .

• قيمة التفكير المعتمد على هذا المنهج تقوم أساساً على مبادئه العامة التى تقدم روحاً جديدة للبحث والنظر ، وتناول النصوص لتحليلها كما تنطق فعلاً على مستوى الأصوات والحروف وبنية الكلمة والتركيب والدلالة ، فهو يعتمد على هذه المبادئ المنهجية لا على اجتهاد فرد من الأفراد يجوز على تجربته الخاصة الصواب والخطأ كما حدث فى التفسيرات التى قامت على الأساس الأخير

• من مبادئه الهامة أنه يفرق بين منطق اللغة ومنطق أرسطو المعروف بالمصطلح الأوروبى Logic ، وهو يعارض الأول ويرفض الثانى ، وبذلك تتضح قيمته فى التفكير فى النحر الذى جنى عليه المنطق الأخير .

• يرفض هذا المنهج التخريجات النحوية والفضول والمباحكات والتخيل والظنون ، إذ يستقرى اللغة فى حدود نصها لا ما يتخيله الذهن منها ، وبذلك يبدو دوره فيما امتلأ به كتاب النحو العربى من هذه الأمور .

• من مبادئه الاعتراف بالاستقراء لا بالقياس ، والاستقراء يودى إلى

« الملاحظة العرفية العامة » ، لما يستقرأ ، وبذلك يخفف كثيراً من حدة الأقيسة التي فرضت سلطانها في دراسة النحو ووقفت في وجه تطور اللغة

• من مبادئه كذلك البحث في العلاقات بين الظواهر اللغوية والصفات والظروف التي أوجدتها دون البحث عن غاياتها ، وفي ضوء ذلك تتضح ضرورة إسقاط العلل والمهارات الجدلية التي ضخمت كتاب النحو العربي دون فائدة

• يهتم هذا المنهج في المقام الأول بالبحث في اللغة عن الشكل والوظيفة المستقرة بالفعل لا المتخيلة في العقل ، وفي ضوء ذلك يتضح ما ينبغي إسقاطه من التأويلات الغريبة التي ضخمت كتاب النحو العربي وهقدت دراسته .

وليس في الإمكان في موضوعي هذا أن أزيد ذلك تفصيلاً (انظر كتابي : أصول النحو العربي)

ثانياً : هذه التصفية التي تقوم على أساس المنهج اللغوي الحديث ينبغي لها - في الوقت الحاضر على الأقل - أن تكون عمالية ، بأن تحافظ على مصطلحات النحو وتقسيماته رعاية للجانب الثقافي من حياتنا ، وكذلك موقف العالم العربي كله من ذلك ، حتى لا يكون مصيرها الفشل .. ثم الرفض .

هي فقط وسيلة منهجية فيها غنى علمي تستمد أسسها من الدراسات اللغوية الحديثة التي قوامها : دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها ، يقوم على أساسها التصفية والتنقية إلى أن يمكن تطبيقها تماماً .

ثالثاً : يتدرج التطبيق على أساس ذلك - مع مراعاة رفض التذليل والتيسير - لتحل - لتقديم أبواب النحو ومسائله في مستويات متعددة للمتخصصين في اللغة - ثم المحتاجين إليها في حياتهم العملية في الفروع الإنسانية الأخرى كالقانون -

والسياسة والإدارة والتأليف - ثم التثقيف العام في المدارس العربية على اختلاف مستوياتها .

وبعد

فلعل هذا الموضوع قد أفلح في توضيح قضية النحو العربي - نظرا وتطبيقا - في مظاهرها المختلفة تاريخيا واجتماعيا وعلميا - مرتبطا في الأمرين الأخيرين بواقعنا المعاصر - وساهم إيجابيا في تقديم تخطيط عملي لما ينبغي أن نسير عليه في الحاضر والمستقبل .

البلاغة العربية بين منهجى اللغة والأدب

(١)

البلاغة العربية بعلمها الثلاثة — البيان والمعاني والبديع — جانب مهم مما ورثناه من ثقافتنا العربية القديمة ، ولقد جاءتها هذه الأهمية من سمات القداسة التى تعودنا أن نضيفها — دون تثبت أو تقويم — على كل ما جاءنا من تراثنا القديم ، وهكذا ظلت علوم البلاغة إلى اليوم تفرض على عقولنا هذه الأهمية التى تنبع من القدم أكثر مما تنبع منها نفسها ومن مسيرتها لروح التطور اللغوى والأدبى الذى يفرض علينا مسيرته والإفادة منه إفادة حقيقية يمكن استحداثها فى مجال الواقع المتطور باستمرار ، والذى يفرض علينا مواجهته بأسلوبه سواء فى مجال النقد أم فى مجال الإنتاج الأدبى .

ولقد أحسست وأنا ألتقى دراسة علوم البلاغة - كما أحسّ بذلك كثيرون غيرى - أن هذه الدراسة لا تفيدنا فكريا ولا وجدانيا ، ولا تنمى ثقافتنا أو شعورنا ، وأن الموضوع كله صناعة ذهنية تدور فى إطار تجريدى بعيد تماما عن متطلبات العصر وروح الأدب ، إذ تتجه الدراسة البلاغية - كما هى عليه الآن - إلى إيراد قواعد نحفظها عن مقتضى الحال ، و التشبيه المفرد والمركب ، و المجاز ، و الاستعارة التمثيلية ، و السكناية ، و الخبر

والإنشاء ، و د الفصل والوصل ، و د الإيجاز والإطناب والمساواة ، وغير ذلك من الأبحاث التي تدور في إطار الصناعة البلاغية ، وهي مشهورة ومتداولة .

وأكبر دليل يحسه الدارس عن تمكن د الصناعة ، في هذه الأبحاث هو تجمد الأمثلة والشواهد فيها ، إذ أن كتب البلاغة - حتى ما ألب حديثا فيها - تكرر الأمثلة نفسها التي أوردها علماء البلاغة السابقون ، الأمثلة التي اعتمد عليها السكاكي منذ القرن السادس والسابع الهجريين ، وتابعه فيها دارسو البلاغة وشارحوها حتى العصر الذي نعيش فيه - وهذه ظاهرة لا نجد لها في علوم البلاغة فقط ، بل نجدها كذلك في كثير من الدراسات التي تجمدت عند وضع معين مثل الدراسات النحوية والفقهية القديمة - وهذا يشير بدوره إلى عيب خطير في دارسي البلاغة والباحثين فيها ، إذ لم يتوقف أحدهم - إلا الأقلون - ليتساءل عن قيمة هذه الدراسة في ذاتها ؟؟ أو عن قيمتها في ارتباطها بالواقع العلمي في الدراسات الأدبية أو الإنتاج الأدبي الدائم التطور والاستمرار ؟؟ فلم تعد بلاغتنا تسير التطور الجديد في أساليبنا التعبيرية ، حتى كادت تصبح تاريخا فقهيا للغة في بعض العصور الأخرى ، بدلا من أن تبقى علما متطورا يخدم اللغة ويعكس أحوالها ويسجل مراحل نموها ، والواقع أن بلاغة أية لغة ينبغي أن تبقى علما مطاطا قابلا للنمو معها ، وإلا بعدت الشقة بينهما ، وانحط شأن البلاغة (١) . وهذا ما حدث للبلاغة العربية إذ استمرت الدراسات الأدبية واللغوية تتطور وبقيت البلاغة تنفرج - بفعل ما سنبينه من عيوب فيها - فبعدت الشقة بينها وبين غايتها ، وراحت تمضغ نفسها في تلك القواعد الذهنية بشواهد الصناعة .

وهذا البحث محاولة تتلمس فيها تاريخ الدراسات البلاغية بصورة مجملة

ثم أهداف علوم البلاغة العربية - بعد أن تجمدت - كما قررها البلاغيون القدماء والمحدثون أيضا - ثم نحاول معرفة العيوب المنهجية التي بعدت بدراسة البلاغة عن أن تؤدي دورها الحقيقي في تفسير الأدب وتذوقه ، ومنها وفيها يمكن سر الجفاف والعقم للذين منيت بهما هذه الدراسة ، وبذلك قصرت عن تأدية دورها في تفسير النصوص وتذوقها وتمثل عناصر الجمال أو العيوب فيها - وأخيرا أتقدم بما أعتقد أنه الحق في تقييم هذه الحركة البلاغية ، وذلك بمقابلة أهم مباحثها بمنهج دراستنا الحالية للغة والأدب ، لنضع هذه المباحث في مكانها الذي يجب أن تكون فيه ، لنخرج عن جمودها التقليدي من ناحية ، ولتؤدي دورها - دراسة وعملا - في موضعها الحقيقي من ناحية أخرى ... وما على أن أكون مصيباً أو مخطئاً في ذلك ، فإنه - على كل حال - رأى يستند إلى دراسة علمية متطورة في اللغة والأدب وربما قد جانبني فيه التوفيق ، ولكنني مجتهد !!

(٢)

لقد مرت الدراسات البلاغية قبل السكاني ، بمستويات مختلفة من حيث الهدف وال斯基فية ، ذلك أن هذه الدراسات قد نشأت أولا - شأنها شأن غيرها من العلوم العربية - لخدمة القرآن الكريم ومحاولة التعرف على مافيه من المفردات والأساليب الغريبة ؛ باستقراء ذلك وتصنيفه ، ويوضح هذه الحقيقة أن أول أثر بلاغي بين أيدينا هو « مجاز القرآن » لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١) ثم استمرت هذه الجهود العلمية المرتبطة بالقرآن بعد ذلك في القرون الثلاثة التي تلت مجاز أبي عبيدة ، وكلها محاولات لفهم القرآن ومعرفته سر إعجازه - فعلى طول هذا الطريق تطالعنا كتب مثل « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة (ت ٢٧٦) و« النسكت في إعجاز القرآن » للرمانى (ت ٣٨٤) و« إعجاز القرآن » للباقلافي (ت ٤٠٣) وغير ذلك من المجهودات الطيبة التي إن لم يحددها علم منظم أو تفكير مقنن فإنه يجمعها كلها أنها تتجه إلى ذلك الأثر الخالد - القرآن - في محاولات متتابعة (في اللغة ودراساتها - ١٥)

لدراسته ، وكانت هذه الدراسة فى مجملها ذات طابع عام متناثر ، ترتبط بالحزنيات أكثر من ارتباطها بالنص الكامل ومحاولة تحليله وتفسيره وحدة واحدة ، الانتهاء من ذلك بقضايا فنية عامة يعتد بها فى النص القرآنى وفيما عداه من النصوص الفنية الأخرى ، كما رأينا ذلك لدى بعض الدارسين فى العصر الحديث من دراسة « التصوير الفنى فى القرآن » و « مشاهد القيامة فى القرآن » ، وغيرهما .

وفى الوقت نفسه قامت دراسات بلاغية أخرى لم تكن ذات صيغة دينية بل كان لها استقلال فى موضوعاتها وأهدافها اختلفت مستوياته على مدى الزمن . وبدأت هذه الدراسات مبكرة أيضا بصحيفة بشر بن المعتمر (ت ٢١٠) ومتجاورة مع الدراسات البلاغية القرآنية السابقة ، وظلت متجاورة معها طوال القرون الثلاثة التالية للصحيفة المذكورة مع اختلاف نموها وقيمتها فى كل قرن على حدة .

فى القرن الثالث الهجرى اختلطت الدراسات البلاغية بدراسات أخرى غير أدبية ، ضمتها كتب عامة موسوعية الطابع ، أهمها « البيان والتبيين » للجاحظ (ت ٢٥٥) والكامل فى اللغة والأدب للمبرد (ت ٢٨٥) وهى كتب غير مختصة فى موضوعاتها ولا فى هدفها العام ؛ إذ تحوى أخباراً وأشعاراً ودراسات فى البلاغة وغيرها من مسائل الأدب واللغة .

وفى القرن الرابع اختلطت دراسات البلاغة بالدراسات النقدية القديمة . وكانما الهدف هو الحديث عن الأدب بصورة عامة ، كما نجد ذلك فى « تيار الشعر » لابن طباطبا (ت ٣٢٢) و « نقد الشعر » لقدامة ابن جعفر (ت ٣٣٧) وتنبع قيمة هذه الدراسات - على ما فيها من عيوب - من اعتمادها - ولو نظريا - على النصوص الأدبية ، ومن تخصص مصطلحاتها التى كانت عامة فيما سبق .

وكان أقصى مدى وصلت إليه الدراسات البلاغية - قبل السكاكي - في القرن الخامس الهجري على يد عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧٤) في كتابه (دلائل الإعجاز) ففيه قدرة فنية عالية لفهم النصوص الأدبية وتحليلها متكاملة ، وعناية بدلالات الألفاظ وإيحائها مرتبطة بالإحساس العام بالنص ومدلوله - وهذا لم يحدث فيما سبق من دراسات - كما يغلب فيه التطبيق على نصوص القرآن والشعر والنثر .

بعد ذلك . . . كان السكاكي (ت ٦٢٦) وفيه يقول ابن خلدون : ولم تزل مسائل الفن - البيان والمقصود كل علوم البلاغة - تكمل شيئاً فشيئاً ، إلى أن مخض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرنا آنفاً من الترتيب ، وألف كتابه المسمى « بالمفتاح » ، في النحو والتصريف والبيان ، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه ، وأخذ المتأخرون من كتابه ، ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد ، كما فعله السكاكي في كتاب « التبيان » ، وابن مالك في كتاب « المصباح » ، وجلال الدين القزويني في كتاب « الإيضاح » ، و « التلخيص » ، وهو أصغر حجماً من الإيضاح (١) .

أجل . . . إنه هو أبو يعقوب السكاكي !! الذي جرد دراسة البلاغة وقن قواعدها وخنق الصلة بينها وبين الأدب والتذوق ، ودخلت دراستها - بسببه - ومن بعده .. مجاهل ضل فيها الذين يعلون والذين لا يعلمون ، وأثر كتابه كل التأثير فيمن تابعوه من الشراح والمختصين حتى العصر الذي نعيش فيه (٢) ، وهذا ما سيتضح بصورة أكبر فيما يأتي من فقرات هذا البحث .

(١) راجع : مقدمة ابن خلدون (تحقيق وافي) ج ٤ ص ١٢٦٥ .

(٢) يلاحظ أن دراسة البلاغة في جامعاتنا ومدارسنا مازالت تسير على نفس النهج الذي وضعه السكاكي وشرّاه ، وتردد نفس الأمثلة والشواهد ولم يحدث بها تجديد فكري بل شكلي .

(٣)

« البلاغة في الكلام هي مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته » بهذه العبارة تفتح وجوه البحث في دراسات علوم البلاغة الثلاثة بتفصيلاتها الكثيرة ، وتبدو براعة البلاغيين في أبحاثهم حول تفسير هذه العبارة وفهمها كي تشمل كل علوم البلاغة الثلاثة ، فالمراد بمناسبة الحال الخصوصيات التي يبحث عنها في علم المعاني دون كيفيات دلالة اللفظ التي يتكفل بها البيان ، إذ قد تتحقق البلاغة في الكلام بدون رعاية كيفيات الدلالة ، بأن يكون الكلام المطابق لمقتضى الحال مؤديا للمعنى بدلالات وضعية . . . نعم إذا أدى المعنى بدلالات عقلية مختلفة في الوضوح والخفاء لا بد في بلاغة الكلام من رعاية كيفية الدلالة أيضا (١) ، فالمطابقة لمقتضى الحال تقتضى تعبيراً يؤديها ، وإذا كانت دلالات الالفاظ في هذا التعبير وضعية على حسب عرف اللغة فقط ، اختصت هذه العبارة - مطابقة الكلام لمقتضى الحال - بعلم المعاني ، أما إذا كانت تلك التعبيرات التي تؤدي هذه المطابقة بما تدخل فيها الصنعة العقلية والقدرة البلاغية بحيث تختلف وضوحا وخفاء - لاحظ أن الخفاء لدى البلاغيين أبلغ - فإن العبارة تشمل علم البيان أيضا ، إذ تختلف فيه مستويات التعبير بين الارتفاع والهبوط حسب حظها من الوضوح والخفاء ، وحسب حظ قائلها من القدرة على الصناعة - التي وصفت بأنها عقلية - من حقيقة أو مجاز ومن تشبيه أو استعارة أو كناية ، إذ تتفاوت رتب هذه الأمور السابقة ، وما كل إلالة مقام معلوم يقدره أهل الفضل من علماء البلاغة ١١

(١) شروح التلخيص ١/١٢٣ (الإيضاح للقزويني)

فقد لحص القزويني مفتاح السكاكي ، ونال هذا التلخيص ما لم ينله الأصل من الاهتمام والشروح الكثيرة ، ومنها مجموعة مشهورة في كتاب واحد بهذا الاسم .

ويكاد البلاغيون يتفقون بعد مجهود عنيف في شرح العبارة السابقة والدوران حولها وتقليبها على وجوهها الممكنة وغير الممكنة بإعمال العقول فيها على أنها تشمل علمي المعاني والبيان - بل علم البديع أيضا - إذ « يسمى العلمان علمي البلاغة : لأن لهما مزيد اختصاص بالبلاغة ، أما في المعاني فواضح ، لأن به يعرف ما يطابق به الكلام مقتضى الحال ، والبلاغة مطابقة الكلام مقتضى الحال ، وأما في البيان فلأن مفاده وثمرته معرفة ما يزول به التعقيد المعنوي وهو مما يتوقف عليه البلاغة ... فإنزلة التعقيد المعنوي لا يتعرض له إلا من له طموح للبلاغة (١) ، فما دام البحث في البلاغة . . وطموح إليها ، فلا بد أن يشمل هذا البحث في الواقع التفاوت في طرق التعبير وهو ما انبنى عليه علم البيان - بل إن الأمر يشمل ما هو أكثر من ذلك وهو دراسة وجوه «الفهلوة» والتفنن التي يحسن بها الكلام نتيجة الإيقاع اللفظي والتلاعب بالألفاظ والحروف أو اللمحات المعنوية الجزئية في المعاني ، وهو مما يزيد الكلام حسنا لحسن البلاغة .

فالعبرة التي افترضت بها هذه الفقرة - مطابقة الكلام لمقتضى الحال - هي المحور الذي دارت حوله أبحاث البلاغيين القدماء والمحدثين أيضا ، فتابعوهم في المصطلحات وشرحها ، وتحددت تلك الأبحاث في :

- ١ - علم المعاني : وهو ما يعرف به المعاني التي يصاغ لها الكلام ، وهي الدلالات العقلية المسماة بخواص التراكيب .
- ٢ - علم البيان : وهو ما يعرف به بيان إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالات وخفائها .
- ٣ - علم البديع : وهو ما يعرف به وجوه تحسين الكلام لفظيا ومعنويا .

(١) السابق ص ١٥٠ (مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي)

لكن ... ما هي الفائدة التي تؤديها الدراسة البلاغية كما يراها البلاغيون ؟
أو بعبارة أخرى : ما أهداف هذه الدراسة التي يمكن أن يفيد منها الدارس من
وجهة نظرهم ؟

في رصد هذه الفكرة ينبغي أن يصرف النظر عن الحديث العام ذي الطابع
الإنشائي ، إذ أن طبيعة هذا الحديث لا تفيد شيئاً محدداً ذا قيمة ، وذلك مثل
« علم البلاغة أشرف أنواع الأدب قدراً وأعلالها مكانة وخطراً ، لأنه علم
الاستخراج لأسرار البلاغة من معادنها ، والكشف عن محاسن النكت المودعة
في مكانها ، أو مثل « علم البلاغة نافع للأديب والناقد والمؤرخ ولكل كاتب أو
متكلم أو خطيب أو مدرس ، فإنه ينير السبيل أمام هؤلاء جميعاً ، ويعينهم على
أن تكون آثارهم اللغوية مفيدة مؤثرة متمعة تغذي العقل والشعور والاذواق (١) » ،
فإن المفاضلة بين علم وآخر لا تفيد شيئاً ، فليكن علم البلاغة أشرف قدراً وأعلى
مكانة أو محروماً من كلا الوصفين ، فهذا لا يهم ولا يدخل في نطاق البحث ١١
ولا أدري كذلك كيف تفيد البلاغة كل هؤلاء المذكورين وبخاصة المؤرخ ١١
والحقيقة أنه مثل هذه العبارات العامة وأمثالها لم تعد من سمات التفكير العلمي
المنظم ، بل لم تعد من سمات عصرنا على الإطلاق ، إذ لم تتمخض عن شيء له وزنه
الحقيقي ودعائه العلمية الصحيحة .

ومع ذلك فمن الممكن أن نحدد أهداف هذه الدراسة بما نعر عليه بين
العبارات العامة والإنشائية سواء في الكتب القديمة أم توابعها من الكتب الحديثة .
يقول ابن مالك : « وإذا حذقت هذا العلم أطلعك على إعجاز نظم القرآن ، وعلى
خفاء انصباب نظمه في تلك القوالب ، ووروده على تلك المناهج والأساليب

(١) العبارة الأولى من « المصباح » ، ص ٣ - والثانية من الأسلوب ص ٩ .

وأقدرك في نسج جيد الكلام على ما يشهد لك من البلاغة بالقدر المعلن (١)

فأهدف من دراسة البلاغة إذن يتحدد في أمرين هما :

أولاً : معرفة طريقة القرآن في نظمه ، وبالتالي الكشف عن سر إعجازه .

ثانياً : معرفة الطريقة التي يكون بها الدارس بليغاً في نقطه ، بما يشهد له - كما قال ابن مالك - بالقدر المعلن .

وقد قرر كتاب الأسلوب الفكرة الثانية بنفس المعنى مع اختلاف الالفاظ فقط ، إذ يقول :

« فقواعد البلاغة ترشدنا إلى الإنشاء الصحيح ، وإلى الطرق المختلفة لتأليف الكلام الممتاز بالإفادة وقوة التأثير » (٢) ،

أجل ... فأهداف البلاغة أن نعرف بها إعجاز القرآن وأن تعلمنا الإنشاء الصحيح !! وكلا الهدفين لا يمكن أن تؤديه البلاغة العربية بصورتها الحالية — لما سيأتى في الفقرة التالية — فقط أقرر هنا أن الهدف الثانى منها يقف فى طرف مخالف تماماً للروح الأدبية والعلمية ، ذلك أن الأدب ليس قواعد ينتج الأديب على أساسها ، لكنه استعداد فنى لدى الأديب ينميه النقد البناء لإنتاجه مع مولاة هذا الإنتاج وهذا النقد ، ولا أنصوّر أديباً أصيلاً يتوقف ليسائل نفسه عن قواعد البلاغة لكي يتوافق معها فيما يقدمه من أساليب وأفكار ، وبعبارة أخرى : أن الإنتاج الأدبى طبع يسنده النقد ، وهو سابق على القواعد والتقنين ، وهذا نفسه هو روح المنهج الاستقرائى السائد الآن فى البحث العلمى الذى يقرر أن الإنتاج أولاً ثم يكون التفسير ، فالاستقراء يكون لما هو

(١) المصباح ص ٣ .

(٢) الأسلوب ص ٧ .

كائن بالفعل لا لما يجب أن يكون ، وهو منهج يتسم بالتسامح وعدم التحكم
لكن شاء البلاغيون أن يجعلوا هذا العلم للإقدار على « نسج جيد الكلام »
و « تعليم الإنشاء الصحيح » ، فجانبهم التوفيق فيما أنتجوه وفيما هدفوا إليه .

(٤)

من الأسباب التي أدت إلى عقم البلاغة وتجمدها أنها تأثرت أبلغ التأثير
بالأبحاث الفلسفية التي اهتم بها الباحثون العرب في وقت مبكر مع نشأة العلوم
العربية ، ونمت معها نموا وصل في العصور المتأخرة إلى حد التمحل والتكلف وإلى
درجة جعلت الدراسة في علم كالبلاغة مجهودا مضنيا للعالم والمتعلم على السواء ، وإذا
كان هذا المجهود يبذل فقط في الفهم والمعرفة ، فكيف يكون مؤسفا أن ما نفهمه
وما نعرفه مما لا علاقة له بالأدب ولا بالفن الاصيل .

وفي يدي من تراثنا البلاغي المتأخر « شروح التلخيص » ، وهي خمسة مرتبة
في الصفحة الواحدة ترتيبا تنازليا على طريقة الأنهر - وكلها تشرح ملخصا لكتاب
« المفتاح » ، وضعه الخطيب القزويني ، وقد فتحت أحد أجزاء هذا الكتاب
فوجدت أمامي حديثا عن أدلة الحذف في مثل قوله تعالى : (حرمت عليكم الميتة)
« فقد قال المخلص : العقل يدل على الحذف ، والمقصود الأظهر - هل سمعت به ١١ -
يدل على المحذوف ، وجاء في أحد الشروح : وفيما قاله المصنف نظر من وجهين
أحدهما : أن الدليل المسوغ للحذف لا بد أن يكون دليلا على تعيين المحذوف
لما لفظيا كالمعين أو خارجيا كما في الجملة لا على أصل الحذف ، فإن أراد أن
العقل دل على أصل الحذف فليس ذلك دليلا مسوغا للحذف إلا لغرض الإبهام
وإن أراد أن العقل دل على أصل الحذف والظهور دل على تعيينه فالدال حينئذ
على المحذوف المعين وهو اظهور ، فالأولى أن يقال : ظهور لإرادة المحذوف دليل
عليه ، وتارة يجوز العقل مع ذلك لإرادة المنطوق به وتارة لا يجوز ؛ بأن يدل

العقل على استحالة إرادته ، والثاني : أن قوله : أدلته كثيرة منها أن «يدل العقل ، لا يصح ، لأن «يدل العقل ، ينحل إلى «دلالة العقل ، فكأنه قال «أدلته الدلالة ، وهو فاسد (١)

هل فهمت شيئاً ١١ وإذا كنت قد فهمت ، فماذا يفيد ذلك في الفن والادب ؟؟
أو حتى - كما قالوا - في معرفة الإيجاز في الآية المجردة تحت وطأة هذه المعاني
الذهنية الفلسفية التي لا تقدم شيئاً غير التشويش واللعياء .

إن السر الذي يكمن وراء هذا اللون من البحث أن كثيراً من الباحثين في
هذا الدور المتأخر كانوا متكلمين ومناطقة ومتفلسفين قبل أن يكونوا أدباء أو
نقاداً ، فالسكاكي متكلم ، والنقّازاني (ت ٧٩٢) متكلم ومنطقي ، له من
الكتب «شرح العقائد ، و«المقاصد في الكلام ، و«شرح الشمسية في المنطق ،
والشريف الجرجاني على بن محمد (ت ٨٢٦) أستاذ في البحث والجدل والفلسفة
ومن كتبه «شرح حكمة العين ، و«شرح كتاب المواقف في الكلام ، وكان من
الضروري إذن أن ينعكس تكوينهم الذاتي - عن قصد أو غير قصد - على مجيئهم
البلاغي ، فكانت تلك التركة البلاغية التي تعلم كل شيء إلا البلاغة .

على أن فكرة «مقتضى الحال ، نفسها التي قامت عليها دراسة البلاغة - كما
سبق - فكرة دخيلة عرفت عن أرسطو ، وقد ذكر ذلك الدكتور إبراهيم سلامة -
وهو مترجم كتاب : الخطابة لأرسطو - إذ قرر أن هذا مبدأ أقره أرسطو ، فما
كان يسمع أن يتكلم في الخطابة القضائية بما هو لاصق بالخطابة السياسية ، بل
طالب الخطباء بمراعاة الجنس والسن والحالة العقلية للسامعين ، فلا تسلم النساء

بما يكلم به الرجال ، ولا يكلم الشباب بما يكلم به الشيوخ ، ولا يكلم الجاهل بما يكلم به المتعلم (١) .

ونتيجة لهذا السبب الرئيسى من عيوب البلاغة يحىء سبب آخر هو وقصور الدراسات البلاغية عن مجارة الادب ، ذلك أن الادب فن يتطور باستمرار فى موضوعاته وأشكاله وروحه ، وهذا يستدعى بدوره دراسة متطورة تلاحقه بالتفسير .. والتنوير ، وهذا لم يحدث للبلاغة فى عصورها المتأخرة ، لأن طبيعة دراستها - كما وصفنا - منفصلة عن الادب من ناحية ، ولأن الجهود بعد ذلك اتجهت للتلخيص والشروح والحواشى من ناحية أخرى ، فلم تصبح المادة المدروسة هى الادب ، بل أصبح المدروس المشروح هو مجهودات السابقين المقيدة بشواهد محدودة يرددها الخلف بعد السلف ، ولست أغالى إذا قلت : إنها قد انتخبت عن قصد لتصلح ميدانا للأخذ والرد والمجهود الذهني الرائع فى غير ما يستحق الروعة !! ولو أوردت هنا بعض هذه الشواهد لكان فيها ما يثير ابتسامة الغيظ ومرارة الأسف .

وهناك عيب ثالث فى الإطار الذى وضعه البلاغيون لدراساتهم - غير الأدبية - إذ لم يضعوا فى اعتبارهم دراسة النص وحدة متكاملة ، بل جعلوا هذه الدراسة تدور حول المفردات والجمل منفصلة عن روح النص ومضمونه ، فالبحث فى المعانى إنما هو بحث فى طرفى الجملة - المسند والمسند إليه - ثم بحث الجمل من حيث تقع موقع المفردات أو لا تقع فتوصل أو تفصل ، وكذلك نجد أبحاث البيان من تشبيه واستعارة وكتابة ليست إلا جملة واحدة أو كالجمل الواحد إذا كانت تشبيها مركبا أو مجازا كذلك وهكذا ، فالبلاغة العربية بوضعها الراهن - كما يقول

(١) راجع : بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٣١

أحد الدارسين - لا تكاد دائرتها تتعدى البحث في مظاهر الجمال الحسية والمعنوية - في الجملة من حيث مفرداتها وتأليف هذه المفردات وترتيبها إلى البحث في مظاهر الجمال للقطعة الأدبية المتكاملة .

والحقيقة أن البلاغة لا بحث لها في الجمال على الإطلاق ، ولو كانت بحثاً في الجمال - حتى في نطاق الجمل والمفردات - لارتبطت بالنص كله - ربما بقوة الدفع الذاتي - وقدمت للذوق والأدب ما هو أجدى مما هي عليه الآن .

(٥)

والآن ... ما هو الحل ؟؟

هناك طريقتان يردان على الذهن تجاه مشكلة البلاغة ، أولها هو طريق الإصلاح والترقيع ، والثاني هو طريق المواجهة الجذرية للمشكلة ، نضع فيه أبحاث البلاغة في مناخ جديد تنفس فيه بعمق وحيرية - والاول يعتمد على أن نصفي دراسة البلاغة مما فيها من الخلط والاضطراب ، وأن نبقى ما نستصفيه من دراستها على ما هو عليه الآن بنفس التقسيمات والمنهج - أما الثاني فيعتمد على أن نواجه أبحاث البلاغة العامة مواجهة صريحة وجريئة ، لكي نوجهها الوجهة التي تتفق مع مناهج الدراسات الأدبية واللغوية الحديثة .

وأنا أختار الطريق الثاني ، لأن الأول لن يحل المشكلة حلاً نهائياً ، حيث ستبقى الروح العلمية المتخلفة - حتى مع هذا الاستصفاء - موجودة في المادة العلمية نفسها ، وتبقى جذورها - شتناً أم لم نشأ - ضاربة في أعماق الدراسة القديمة بما فيها من تعقيد وآلية .

والمعلوم أن الأبحاث العامة في علم البيان تلتخص في : التشبيه والاستعارة والسكناية ، والحقيقة والمجاز - أما أبحاث علم المعاني فهي عن : المسند والمسند إليه والقصر والخبر والإنشاء وأنواعهما والفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة - ويتبعهما علم البديع .

وسأتناول هذه الأبحاث في مستويات ثلاثة :

- ١ - التشبيه والاستعارة والكناية ودراسة الصورة الأدبية في النقد الحديث
- ٢ - الحقيقة والمجاز وتطور الدلالة في الدراسات اللغوية الحديثة
- ٣ - أبحاث علم المعاني ونظام الجملة وفن التركيب في الدراسات اللغوية الحديثة

لنرى كيف يمكن لهذه الأبحاث أن تؤدي دورها في وطنها الجديد
فتستفيد وتفيد .

أولاً : التشبيه والاستعارة والكناية ودراسة الصورة الأدبية
من غير المعقول أن أستعرض هنا في هذا البحث الموجز فكرة المذاهب
الأدبية المختلفة عن الصورة الأدبية من كلاسيكية ورومانتيكية وبرناسية ورمزية
وسيربالية ونفسية وغيرها - فلذلك أبحاثه ومواضعه الأخرى - لكنني أشير فقط
إلى بعض الخطوط العامة التي أفدناها من هذا الجهد الأدبي الغني فيما نحن بصدد
زعمه من دراسة هذه المباحث البلاغية ضمن هذا الإطار .

من ذلك أن الصورة الأدبية لا يلزم أن تكون ألفاظها أو عباراتها مجازية
- كما هو رأى علماء البلاغة - بل تكون الألفاظ والعبارات أحياناً حقيقية
وتصور المشهد أو الموقف النفسى تصويراً فنياً صادقاً يدل على خيال خصب ، من
ذلك مثلاً قول القرآن (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ، ربنا
أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) فجميع الألفاظ في هذه الآية
حقيقة الاستعمال ، لكنها مع ذلك تصور مشهداً حزينا من مشاهد القيامة
هو الموقف الذليل للمجرمين (ناكسوا رؤوسهم) يزيده ذلة أنهم (عند ربهم)
بل إن حديثهم كذلك ذليل يصور أمنياتهم المحرومة البعيدة المنال (ربنا أبصرنا
وسمعنا فارجعنا) وأنسى يكون الرجوع بعد فوات الأوان !!

ومن ذلك أيضا قول « أبي صخر الهذلي » في حبيبته :

ويمعنى من بعض إنكار ظلمها إذا ظلمت يوما وإن كان لي عذر
مخافة أنى قد علمت لئن بدا لي الهجر منها ما على هجرها صبر
وأنى لا أدري إذا النفس أشرفت على هجرها ما يباغى في الهجر

فليس في هذه الآيات الثلاثة كلمة مجازية بأسلوب البلاغة ، لكنها مع ذلك تصور بصدق أزمة « أبي صخر » النفسية ، إذ تظلمه حبيبته أحيانا ، فيغالب على أمره ولا يستطيع حتى (بعض الإنكار) مع أن الحق في جانبه لو أنكر (وله عذر) ولكنه لا يستطيع !! ويقدم لنا مبررات ضعفه في خوفه من هجرها حقيقة (وماله على هجرها صبر) بل رهبته من نفسه هو إذا قاربت الهجر وأشرفت عليه وما يسببه له ذلك من آلام ومتاعب ، فما بالك بالهجر نفسه (ما يباغى في الهجر) وهو بذلك يشير فينا إلى شفاق عليه وإعذاره في ضعفه بدلا من الحق عليه والأسف من جنبه !!

وبهذا الخط العام نرى أن دراسة الصورة الأدبية في النقد الحديث تتسع لدراسة أشمل بكثير مما قصرته الدراسات البلاغية القديمة على التشبيه والاستعارة والكناية ، وهى فكرة ما تزال شائعة لدى كثير من العاكفين على دراسات السلف وحدهم .

ومن هذه المبادئ أن تكون الصورة في العمل الأدبي مرتبطة بالتجربة - على معنى أن تجسد الصورة فكرة أو عاطفة مما تثيره التجربة المتناولة نفسها من أفكار وعواطف ، وإلا كانت افتعالا مزيفا يدل على براعة العقل وقوة التخيل لكنها في الوقت نفسه تفقد الصدق ولا تفيد شيئا ، إذ تدل فقط على « فهلوة » العقل والخيال إن صح هذا التعبير ، فالصورة جزء من التجربة ، ويجب أن تتأزر

مع الأجزاء الأخرى في نقل التجربة نقلاً صادقاً فنياً وواقعياً ، وهذا قدر مشترك بين المذاهب الأدبية الحديثة (١) ،

وفي ضوء ذلك يمكن أن نقدر قيمة كثير من التشبيهات والاستعارات التي اعتد بها البلاغيون فراحوا يحللونها معجيين ، مع أنها عارية تماماً عن الصدق والفن ، من مثل :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال
وقول الفرزدق يرثى ابنه :

بفي الشامتين الرب أن كان مسني رزيه شلى مخدر في الضراغم
وما أحد كان المنايا وراءه ولو عاش أياها طوالا بسالم
يذكرني ابني السّما كان موهنا إذا ارتفعنا فوق النجوم العواتم

ففي البيت الأول احتجاج عقلي لتفوق الممدوح على الناس (بأن المسك بعض دم الغزال) وهو احتجاج مزيف ، وتجربة الفرزدق هي « فقد ابنه » وما يثيره ذلك من أشجان وأحزان ، ولكنه راح يتحدث عن الأشبال والأسود والساكنين والنجوم ، وهي صور منشؤها قوة التخيل ، لكنها كاذبة ضعيفة التأثير لانقصامها عن تجربته .

ومن رأى النقد الحديث أيضاً أن الصور الأدبية في النص ينبغي أن تكون تجسيدا قويا الصلة بالمشاعر التي تسيطر على النص كله ، وأن يكون التيار الذي يرفدها من داخل العمل الأدبي نفسه ، فتصبح بذلك دلالة على هذا الشعور وعمقه ، فهي فورة من فوراته الغنية تجسدت في صورة حسية قوية ، وكلما كانت

الصورة أكثر ارتباطا بالشعور كانت أقوى صدقا وأعلى فنا ، وكلما بعدت عن ذلك انقطع التيار الذى يمدّها بالحيوية والحياة .

وفى ضوء هذا المبدأ يتبين أن كثيرا من التشبيهات والاستعارات التى تدل فقط على البراعة الحسية دون أن يكون وراءها شعور يغذيها - وهو الشعور الذى يسيطر على النص كله - لا قيمة لها فى الميزان النقدى الحديث ، ومن ذلك مما درسناه فى البلاغة :

النثر مسك والوجوه دنانير وأطراف الأكف عنم
فأمطرت أولوا من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

وكم جهدنا فى معرفة هذه الوجوه البيانية وأبعادها ؟؟ ومثلها ركام هائل فى الشعر العربى نفسه وفى دراسات البلاغة القديمة .

ويتبين كذلك فى ضوء هذا المبدأ أن مجرد الصنعة البلاغية فى بيان أطراف التشبيه ووجه الشبه « الجامع فى كل » وإجراء الاستعارات بمظاهرها المختلفة وبوسائلها المجهدة عمل لا قيمة له ، لأن أساسه بتر الصورة الأدبية عن تيارها الشعورى والنفسى ، وبعثرتها جشاً ميتة لا حياة فيها .

وإليك هذا النص النثرى الموجز الذى أورده المبريد فى كتابه ، الكامل فى اللغة والأدب (لتوازن فى صورته بين منهج البلاغيين ومنهج النقد الحديث .

قال أبو العباس : وما يؤثر من حكيم الأخبار وبارع الآداب ما حدثنا به عبد الرحمن بن عوف أنه قال : دخلت يوماً على أبي بكر الصديق رضى الله عنه فى علته التى مات فيها ، فقلت له : أراك بارئاً يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال : أما إني على ذلك لشديد الوجع ، ولما اتيت منكم يامعشر المهاجرين

أشد على من وجعني ، إنني وليت أموركم خيركم في نفسي ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه ، والله لنتخذن نضائد الديباج وستور الحرير ولتألمن النوم على الصوف الأذربي كما يألم أحدكم النوم على حشك السعدان ، والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتمضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا ، يا هادي الطريق جرت ، إنما هو والله الفجر أو البجر .

فقلت : خفض عليك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن هذا يهيضك إلى ما بك ، فوالله ما زلت صالحاً مصلحاً . . . لا تأس على شيء فاتك من أمر الدنيا . . . ولقد تخليت بالأمر وحدك ، فما رأيت إلا حيراً .

فهذا النص من نوع المحادثة الأدبية بين صحابيين جليلين هما أبو بكر وابن عرف - وموضوعه مرض أبي بكر ووصايته بالخلافة لعمر ، وما أثاره ذلك من حيلة المهاجرين .

فقد دخل « ابن عوف » ، على « الصديق » ، وهو يحمل مشاعر المواسي ، أما أبو بكر فتألم حائق بما هو فيه من مرض بدني وشعور نفسي بمض ، وقد عبر كل منهما عن مشاعره بصدق - فعبد الرحمن يواسي الصديق عن آلامه البدنية أولاً بما يجمل بالمقام من الحديث عن الصحة والعافية (أراك بارثاً يا خليفة رسول الله) - ويرد أبو بكر بعبارة قصيرة عن ألمه الجسمي (إنني على ذلك لشديد الوجع) ثم يلتفت بسرعة إلى ألمه النفسي فيطيل الحديث عنه دلالة على شدة سيطرته على نفسه وعظم أهميته بالنسبة له ، مبيناً أن الذي أثار حفيظة المهاجرين واعتراضهم عليه إنما هو حب الدنيا . . . وإرادة الفتنة - وأخيراً يأتي دور ابن عوف فيواسيه مرة ثانية عن ألمه النفسي بعد ما واساه عن مرضه البدني فيقول له : هون عليك الأمر (فإن هذا يهيضك إلى ما بك) فيهدئه بعض الشيء ثم يهدئه تماماً بوصفه (بالصلاح والإصلاح) وأنه لم يخطيء في اختياره (فما رأى إلا خيراً) ولقد اختار فأحسن الاختيار .

ففي هذا النص يتسلسل الشعور تسلسلا طبيعيا لا تكلف فيه ولا افتعال، وهو من ناحية أدائه اللفظي ترتبط فيه الكلمات والعبارات في مدلولاتها وإيحاءاتها بتلك المشاعر ارتباطا ناميا دون حشو أو توقف، ثم تناسب تلك العبارات في سهولة ورفق دون طنطنة أو ضجيج - وذلك مناسب تماما لموقف المحادثة الجادة بين الأصدقاء - وفي خلال ذلك تتناثر فيه بعض الصور البيانية التي هي موضع حديثنا هنا وهي (كلكم ورم أنفه - يخوض غمرات الدنيا - أن يقدم أحدهم فتضرب عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا، يا هادي الطريق جرت، إنما هو والله الفجر أو البحر).

فماذا يفعل البلاغيون تجاه ذلك؟؟ - إنهم يعزلونها عن الموقف والمشاعر التي يؤديها النص، ثم يتحدثون عنها بعد ذلك هكذا :

• كلكم ورم أنفه : كناية عن الغضب، وهي من النوع الذي يذكر فيه اللازم ويراد الملزوم

• يخوض غمرات الدنيا : يدخل في الفتن - وفي الفعل استعارة تبعية - وفي الغمرات استعارة أصلية (يجرونها)

• عبارة أن يقدم الخ : فيها تشبيه ضمني مركب، يحددون هيئاته وأجزائه . أما النقد الحديث فيعتبر تلك الصور في أما كتبها التفاتات جانبية ذات صلة طبيعية بمجرى الشعور الساري في كيان النص كله، ففي عبارة (كلكم ورم أنفه) نحس أن أبا بكر قد أشعرنا بالتشويه النفسي الذي دفعهم للغضب والاتهام بتلك الصورة التي يتضح فيها التشويه البدني - صوره أنوفهم التي تضخمت حتى أساءت إلى وجوههم - فإذا انتقلنا إلى من (يخوض الغمرات) وما تبعه من (يا هادي الطريق جرت، إنما هو والله الفجر أو البحر) نحس حقار هبة الدخول في الفتن بما تجسد أمامنا من صور الظلمات والخائضين فيها... والاندفع في السير ليلا وقد ضل الطريق مع ما يترقبه من شر وهلاك، وكل ذلك يجسد حقيقة المأساة التي يخشاها أبو بكر ويحذر منها، وهي الدخول في الفتنة .

(في اللغة ودراساتها - ١٦)

أجل .. فالتصوير إن ارتبط بمضمون النص بتلك الإيحاءات المجسدة مما لا تؤديها العبارات في مستواها العرفي الحقيقي، فهو صادق فنيا، وإلا كان افتعالا لا قيمة له وحشواً لا فائدة فيه - وهكذا يجب دراسته .

أخيرا .. فليس من الممكن - في هذا البحث الموجز - أن أستمّر في عرض كل ما أفدناه من هذا التراث الإنساني في دراسة الصورة الأدبية - فهو كثير - مع الموازنة بين ذلك وبين تركتنا البلاغية القديمة، لكنني أكتفي بما قدمته معتقدا أن من الإنصاف والوفاء لبحوث التشبيه والاستعارة والكنائية، في البلاغة العربية أن تصني نفسها، ثم تنضم بعد ذلك إلى دراسة الصورة الأدبية في النقد الحديث لتستفيد وتفيد .

ثانيا : الحقيقة والمجاز وتطور الدلالة في الدراسات اللغوية

تبين - في الفقرة السابقة مباشرة - قيمة المجاز البلاغي في مستواه الفني وكيف يمكن لدراسته أن تكون مجدية في مستواها الجمالي باعتبارها جزءا من دراسة الصورة الأدبية في النقد الحديث، وهنا نتناول بحث الحقيقة والمجاز - وهو أحد مباحث البلاغة الأساسية - في مستوى آخر موضوعي هو المستوى الدلالي، إذ أن الحقيقة والمجاز ليستا سوى مظهر للتطور الدلالي، لا في اللغة العربية وحدها، بل في كثير من لغات العالم، ولذلك فإن بحثهما الآن يندرج تحت فرع من فروع الدراسات اللغوية الحديث وهو علم المعنى أو الدلالة Semantics وبالتحديد أدق: في البحث عن تطور الدلة،

لقد قسم علماء البلاغة الأقدمون الألفاظ إلى حقيقة ومجاز، مفترضين أن هناك واضعا أول قد وضع الألفاظ لمعان معينة، فإذا استعملت هذه الألفاظ في معان أخرى غير ما وضع أولا خرجت عن حقيقتها إلى المجاز، كما جاء في شروح التلخيص:

إن الحقيقة هي الدلالة الأصلية للفظ من الألفاظ في معان أخرى غير ما وضع أولاً ، خرجت عن حقيقتها إلى المجاز ، به غير المعنى الأصلي الموضوع له في أصل اللغة - وينقل السبوطي عن من لقبه « بالإمام وأتباعه » قوله: المجاز خلاف الأصل: لأنه يتوقف على الوضع الأول والمناسبة والنقل ، وهي أمور ثلاثة ، والحقيقة على الوضع وهو أحد الثلاثة ، فكان أكثر ،

وعلى الرغم من ذلك فإن علماءنا الأقدمين - ومنهم البلاغيون - قد اختلفوا تماماً في تقسيم ألفاظ اللغة بين الحقيقة والمجاز والانحياز الحاسم إلى أحد الجانبين أو الآخر بكليهما ، بل قد اختلفوا أيضاً في دلائل الفرق بينهما في حديث طويل ليس هنا مجال ذكره .

والسبب في هذا الاختلاف والاضطراب يعود إلى أن فهم الحقيقة والمجاز لديهم قد قام على أمس هي :

١ — افتراض الوضع الأول للغة ، أو بعبارة أخرى : افتراض التوقيف في نشأتها ، سواء أكان ذلك المنشئ هو الله أو الإنسان كما هو واضح في تحديد المعنى السابق لكل من الحقيقة والمجاز .

٢ — اعتبار اللغة عصرًا واحدًا في تحديد دلالة الألفاظ والاستشهاد بها

٣ — إغفال العنصر الاجتماعي في تحديد مدلولات الألفاظ ، للتفريق بين الحقيقة والمجاز .

وبديان هذه الأمور الثلاثة من وجهة النظر اللغوية الحديثة تتضح الأخطاء المنهجية في دراسة الحقيقة والمجاز لدى البلاغيين خاصة والأقدمين عامة ، كما يتضح أيضاً ما نزعهم من وجوب دراستهما في علم اللغة لا في علم البلاغة .

إن القول بالواضع الأول للغة يرتبط بالبحث في نشأة اللغة التي وجدت من الباحثين القدماء - العرب والأجانب - عناية كبيرة ، فتشعبت الآراء وكثرت وجهات النظر ، لكن منذ القرن الثامن عشر لم يعد لهذا البحث قيمة علمية لدى اللغويين المحدثين ، إذ كتب Herdar في هذا القرن يقول في كتابه « معجزة نشأة اللغة » لقد اخترعت اللغة بوسائل الإنسان الخاصة ، ولم تبتكر بصورة آلية بطريق التعليمات الإلهية ، لم يكن الله وحده هو الذى اخترع اللغة للإنسان . ولكن الإنسان نفسه هو الذى اضطر إلى اختراعها بطريق ممارسة قدراته الخاصة .

وأضيف إلى ذلك أن اللغة لم تبتكر بطريق التوقيف أيا كان ، فليس هناك واضع أول - إلهى أو بشرى - يتوقف عليه وضع الالفاظ . أو دلالتها ، بل إن البحث في نشأة اللغة - عموما - لا يؤذن له الآن بالدخول في المنهج الحديث ؛ إذ هو بحث غيى لا يدخل في إمكان الباحث - وبتقرير هذه الحقيقة يتبين قيمة الأساس الأول الذى يفترضه علماء البلاغة في دراستهم الفكرة ، فافتراض الواضع الأول لدلالة الالفاظ - وعلى أساسه تكون الحقيقة وبتغيره يحدث المجاز - افتراض قد جانبه التوفيق .

أما اعتبار اللغة عصرأ واحداً فى تحديد دلالة الالفاظ وفى الاستشهاد بها مع أنها تمتد آماداً بعيدة فى الجاهلية وفيما تلاها من قرون - هذا المدى الزمنى الطويل لم يدرس بهذا الوصف ، بل درس على أنه مدى واحد ومرحلة واحدة فإذا أخذنا فى الاعتبار مع ذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تتطور باستمرار ، وأن لكل مرحلة منها خصائص مستقلة فى الدلالة وفى غيرها قد تكون جديدة تماماً أو متجددة عما سبقها ، تبين لنا السبب فى اضطراب منهج الاقدمين واعتبارهم الالفاظ كلها حقيقة أو كلها مجازا ، إذ قد يكون للفظ تاريخ مجازى يبنى مع هذا المدى الطويل - ومن هنا جاء القول بأن كل الالفاظ حقيقة - كما يحدث

العكس أيضا ، إذ قد يكون للفظ تاريخ مجازى يذكره بعض العلماء - ومن هنا ما قيل من أن كل الالفاظ مجازية .

أما الفكرة الثالثة - وهى العنصر الاجتماعى فى دراسة الحقيقة والمجاز - فقد أغفله البلاغيون العرب ، مع أنه هو أساس الفهم المتطور الحديث لفهم الدلالة بل ولدراسة اللغة كلها ، ذلك أن فهم الحقيقة والمجاز يرتبط بالفرد الذى يسمع الالفاظ. أو يقرؤها ، فهو وحده الحكم فى نوع دلالة اللفظ ، ويعتمد حكمه على تجاربه مع الالفاظ وعلى الوسط الاجتماعى والثقافى الذى يعيش فيه ، لأن الحقيقة لا تعدو أن تكون استعمالا شائعا مألوفاً للفظ من الالفاظ ، وليس المجاز إلا انحرافا عن ذلك المألوف الشائع ، وشرطه أن يثير فى ذهن القارئ أو السامع دهشة أو غرابة أو طرافة (١) ، وبالرغم من أن ذلك مرتبط بالفرد ، فإن الأمر لا يتوقف عليه فقط بل نجد قدرا من الاشتراك فى هذا الأثر النفسى للفرد يحدد مستوى الدلالة للالفاظ ، وعلى أساس هذا الاشتراك يكون الحكم العام بحقيقة الالفاظ أو مجازيتها ، فإذا ما تبلورت الكلمة وتحدد معناها الجديد فى البيئة الخاصة كان لا بد لها فى الوقت المناسب أن توسع دائرتها الاجتماعية الخاصة ، حتى تصبح مقررة ثابتة فى الاستعمال العام (٢) ، فالدلالة تعتمد على الفرد أولا ، ترتبط بوسطه الاجتماعى والثقافى ثم على المجتمع كله الذى تتحرك الالفاظ فيه ، فهو وحده الحكم فى شيوع هذه الدلالة وإعطاء الالفاظ دلالتها الجديدة .

وتسكمل هذه الفكرة بملاحظة فكرة أخرى وهى التطور المستمر لكل مظاهر

(١) دلالة الالفاظ ص ١٢٥

(٢) دور الكلمة فى اللغة ص ١١٧

المجتمع - ومنها اللغة - وبناء على ذلك تتغير الدلالة الشائعة في جيل معين وبيئة خاصة إلى دلالة أخرى إذا توافرت لها الظروف الفردية والاجتماعية السابقة . فاللحاجز القديم مصيره إلى الحقيقة ، والحقيقة القديمة قد يكون مصيرها إلى الزوال والاندثار ، وتبقى إذا قدر لها البقاء تنتقل من مجال إلى آخر جيلا بعد جيل وذلك هو التطور الدلالي (١) .

هذا هو فهم اللغوى الحديث لفكرة الحقيقة والحجاز ، وهو فهم يعتمد على طبيعة اللغة الاجتماعية ، وهو أيضا فهم متسامح لا تحكم فيه ، يقف به الدارس وراء اللغة في عصورها المختلفة لدراستها وفهمها ، ولا يفرض عليها حسما لا تحتمله طبيعتها المتطورة بالاستعمال المتغيرة على مدى العصور .

ولا يمكن هنا - في هذا البحث الصغير - التعرض لكل دراسات اللغويين الحديثين عن « تطور الدلالة » من عوامل تطورها ومظاهرها ، وكيفية تعدد المعنى والموازنة بين ذلك وبين دراسات الأقدمين من علماء اللغة والبلاغة - ولكن حسي فيما قدمت أنه إشارة إلى الموضوع الصحيح الذي ينبغي أن ندرس فيه فكرة الحقيقة والحجاز في مستواها الدلالي ، لتكون دراستها مجدية ومتطورة ، وهو « علم الدلالة في الدراسات اللغوية الحديثة » .

ثالثا : علم المعاني ونظام الجملة في الدراسات اللغوية

لعل أول تساؤل يرد على الذهن هنا هو : لماذا سمي هذا العلم البلاغى باسم « المعاني » ؟ وما مدى انطباق بحوثه المختلفة على هذا الاسم ؟ - وبصفحة مصادر هذا العلم القديمة وتوابعها وتأمل التعريفات التي أوردوها له نجد أن المعاني التي

يهتم بها البلاغيون هي الظروف والملايسات التي تحيط بالمتكلم والسامع ، حيث تستدعي هذه الظروف طريقة خاصة في تأليف الجملة ونظام التركيب اللغوي وعلى سبيل المثال يذكر المسند إليه لمعان معينة ، كما يحذف لدواع أخرى ويعرف لظروف خاصة ، وينكر لأخرى وهكذا .

والحقيقة أن مادة الدراسة في هذا العلم ليست هي هذه المعاني فقط ، بل إن مادته تشمل كذلك - ربما بدرجة أهم - كيفيات الجمل وطريقة نظمها ، أو بعبارة أوضح : الصور المختلفة التي ترد عليها من تأكيد ونفي واستفهام وقصر وفصل ووصل وغير ذلك ، فبحوثه إذن موزعة بين هذين الأمرين ، كما جاء في شروح التلخيص ، لأنه علم يعرف به المعاني التي يصاغ لها الكلام وهي المدلولات العقلية المسماة بخواص التركيب (١) ، أو كما يقول ابن مالك « هو تنوع خواص تراكيب الكلام وقيود دلالاته ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام » (٢) .

وسأقدم هنا - باختصار - الرأي في كلا الأمرين السابقين اللذين يقوم عليهما هذا العلم ليتضح في ضوء هذا الرأي :

- ١ - قيمة معاني البلاغيين التي جاهدوا فيها في خدمة النصوص الأدبية وتفسيرها
 - ٢ - تطور علم التراكيب أو تنظيم الكلام Syntax في الدراسات اللغوية الحديثة بما يشمل - فيما نزع - معظم أبحاث المعاني البلاغية في تأليف الكلام .
- إن الدراسة الأدبية تبحث عناصر الجمال الموجودة في النص نفسه ، سواء في جنسه الأدبي أو تجربته أو ما يثار حول التجربة من مشاعر ومعاني أو البناء الفني وما فيه من إمكانيات للنمو بالعمل الأدبي أو تجمده ، والبحث في ذلك

(١) شروح التلخيص ١٥١/١ .

(٢) المصباح ص : ٣ .

يكون باستشفاف روح النص نفسه ومعايشته وجدانيا ، أما دراسة الظروف العامة والخاصة التي تحيط به ، فإنما تعتبر فقط عوامل مساعدة على الفهم والتفسير أو بعبارة أخرى : إنها من العوامل ذات الصلة .

لكن علم المعاني البلاغى دار كله حول هذه الظروف والملايسات ، والغريب حقا أنها لم تكن ظروفا فنية أو وجدانية ، حتى تقدم للأدب شيئا مفيدا ، بل وصفت في شروح النخيص : بأنها مدلولات عقلية ، ووصفها ابن مالك : بأنها قيود للدلالات ، فهي خاضعة لإذن لجفاف العقل وسطوته ، لا لشفاية الوجدان وجماله ، وهي قيود للدلالات تمنعها من التفتح ... والإيجاء ... والرفافة ، يقول الأستاذ ماسينيون في بحث له بمجلة الجمع : فعلم المعانى الحق ليس المقصود به جلب القلوب بطائف التعبير بل قبول العقل والأذهان للأفكار الصحيحة وتصديقها بعد تصورها - والبحث فى الأفكار الصحيحة وتصديقها بعد تصورها من خلال الجمل إنما هو من عمل المنطق فى عنايته بالقضية المنطقية وتصورها وقد كان له — كما سبق بيان ذلك — تأثير كبير فى البلاغيين ودراستهم .

والإنسان يأخذه العجب حتى الدهشة حين يجد هذه المعانى البلاغية من السذاجة والتكرار وضعف الاستقراء للنصوص الصحيحة إلى الحد الذى تصطنع فيه كل من المعانى والشواهد اصطناعا - فالمسند إليه يتقدم لأسباب معينة ، كالتمكن فى ذهن السامع والتعجيل بالمسرة أو المساءة والتعظيم والتحقير والتبرك وغير ذلك - وتتكرر هذه الأسباب نفسها فى تقديم المسند ، بل فى غيره من المواضع . أما ضعف الاستقراء فيتضح فى افتراض تراكيب لم تحدث فى القرآن والنصوص الصحيحة ، كما فى بحث (تقدم الحال من المتعلقةات) وبناء معان على هذه التراكيب المفترضة واختلاق أمثلة وشواهد لذلك ، وكذلك فى مبحث (الفصل الوصل) وغير ذلك .

والخلاصة أن هذه المعاني .. كما هي عليه لدى البلاغيين - مدلولات عقلية فيها من السذاجة والتكرار وضعف الاستقراء ما يعزلها عن كل من دراسة اللغة والأدب على سواء .

أما عن الفكرة الثانية فإن علم التركيب Syntax من أهم فروع الدراسات اللغوية الحديثة ، بل هو غاية الفروع الأخرى التي تسبقه في تحليل النص اللغوي على مستوى الأصوات Phonetics والحروف Phonemes والصرف Morphology والتركيب Syntax ويقابله في دراستنا العربية الآن علم النحو .

وهذا الفرع من فروع الدراسات اللغوية مهمته البحث في خواص الجملة وكتابتها من كيفية تأليفها ومواقعها وموقف كل منها من الأخرى من حيث الموقع ، وعلاقة كل منهما بالأخرى من حيث الوظيفة ، فيرى أولمان Ullmann أن دراسة وظائف الوحدات اللغوية يختص بكل منها علم من العلوم ، والذي يختص بدراسة وظائف التركيب هو علم النحو ، وهذه الوظائف تشمل دراسة التركيب من حيث تأليفه وعلاقة الكلمات بعضها ببعض الآخر .

وإذا نحننا جانباً الفهم الشائع عن نحونا العربي من أنه لدراسة الإعراب وأواخر الكلمات فقط فإن هذا الفهم اللغوي الحديث يتفق إلى حد كبير مع واقع ما في كتب النحو ، ومع الفهم الذي فهمه به كثير من علمائنا الأقدمين .

فثلاً إذا تصفحنا باباً مثل باب «المبتدأ والخبر» نجد أن بحائه الرئيسية تدور حول التطابق بين المبتدأ والخبر من حيث الجنس والعدد ، وموضع كل منهما من حيث التقديم والتأخير ، ووجودهما في الكلام أو غياب أحدهما ، وتعدد الأخبار — فعظم هذه الأبحاث إنما هي في نظم الجملة وأسرارها وتكوينها . وقد فهم كثير من أئمة النحاة مهمة النحو العربي بهذا المعنى ، وعبد القاهر الجرجاني

أشهر من أن يذكر بذلك ، وقبله أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه «بجاز القرآن» ويقول أبو سعيد السيرافى - كما جاء فى الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٢٨ - معانى النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف فى مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وغيرهما - فالنحو فى رأيه يبحث فى الحركات والسكنات والحروف وكيفية تأليف الكلام ، فمهمته لا تقتصر فقط على ضبط أواخر الكلمات .

بهذا الفهم الموجز المركز لتأليف الجمل فى الدراسات اللغوية ومدى اتفاقه مع ما لدينا من تراثنا العظيم ، لعل لا أتجاوز الحقيقة إذ أشير بضم دراسات « علم المعانى » فيما يختص بنظام الجمل والتراكيب إلى الدراسات اللغوية وهى دراسة متطورة نامية يمكن أن تفيد منها أبحاث البلاغيين كما تفيد هى من أبحاث البلاغيين .

* * *

المراجع حسب دورها فى البحث

- | | |
|------------------------------------|---------------------------|
| ١ - قضايا الشعر المعاصر | نازك الملائكة |
| ٢ - مقدمة ابن خلدون | ابن خلدون |
| ٣ - شروح التلخيص | مجموعة من الشراح |
| ٤ - المصباح | ابن مالك |
| ٥ - الاسلوب | أحمد الشايب |
| ٦ - بلاغة أرسطو بين العرب واليونان | دكتور إبراهيم سلامة |
| ٧ - النقد الأدبى الحديث | دكتور محمد غنيمى هلال |
| ٨ - المزهر فى علوم اللغة وأنواعها | السيوطى |
| ٩ - دلالة الألفاظ | دكتور إبراهيم أنيس |
| ١٠ - دور الكلمة فى اللغة | (أولمان) دكتور كمال بشر |
| ١١ - الإمتاع والمؤانسة | أبو حيان التوحيدى |